أربعة كتب عن القائد والثورة

إعداد: سعد زغلول نصار

• الرئيس

تأليف: روبرت سان چون

• الجيش المصرى فى السياسة

تأليف: ب . ج . ڤاتيكيوتيس

• مصر فى انتقال

تأليف: چان وسيمون لاكوتير

• الإصلاح الزراعي فى الشرق الأوسط

تأليف: دورين وارينر

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

الإهداء

الى روح أشجع الرجال ...

أطهر الرجال ...

أخلد الرجال ...

جمال عبد الناصر

تقديم

هذا الكتاب ·· عرض لأربعة كتب صدرت عن الرئيس الراحل العظيم جمال عبد الناصر ·· وعن ثورة ٢٣ يوليو الخالدة ··

وبقدر ما كان عبد الناصر ظاهرة جديدة فى هـذه الحقبة من التاريخ ·· وبقدر ما كان نموذجاً من الزعماء مثيراً فى كل وجه ·· وبقدر ما كان نموذجاً من قادة التحرر الانسانى أمام الشعوب فى كل أرجاء الدنيا ·· بقدر ما كثرت الكتابة عنه بمختلف لغات العالم فى محاولة للوصول الى كنه هذه الشخصية الآسرة وكنه المثل والمبادىء التى آمن بها وعمل على تحقيقها ·· وللوصول الى الأسباب التى تكمن وراء النجاح المذهل الذى لقيته هذه المبادىء والمثل التى طرحها لجماهيره العربية ··

ولقد صدر بمختلف لغات العـالم قرابة الثلاثمائة كتاب عن الثورة ·· وعن قائد هذه الثورة ·· وسـواء أكان الكاتب عدواً أو صديقاً فان شيئاً واحداً يتضح من كل هذه الكتب لا خلاف عليه ؛ هو أن هذا الرجل ظاهرة جديرة بالاحترام ·· لأنها لا تتكرر كثيرا على المستوى الانسانى كله ·· وأنه كان مثالا نادرا للتجرد والاخلاص ··· وأنه بقدر ما كان زعيما مسموع الكلمة على المستوى العربى ·· صاحب تأثير ونفوذ على المستوى الافريقى الآسيوى ·· فقد كان بحق

صاحب تأثير على المستوى الانسانى ذاته كما لم يحدث بالنسبة لزعيم من قبل من زعماء هذه المنطقة ·· أو من زعماء افريقيا وآسيا ··

ذلك كله كان مثار الاهتمام والدراسة منـــذ السنوات الأولى لثورة ٢٣ يوليو ·· وكان من نتيجته ، فيض من الكتب والدراســات حول هذه الثورة ·· وحول قائدها ·· ولقد اخترت من هذا الفيض أربعاً من الـكتب هى بالترتيب :

- الريس (الرئيس) للـــكاتب الامريـكى روبرت ســـان جون
(The Boss. The Story of Gamal Abdel Nasser)
وقد صدر فى نيويورك عام ١٩٦٠ فى ٣٢٥ صفحة من القطع الكبير
- الجيش المصرى فى السياسة ، للكاتب الامريكى ب· ج· فاتيكيونيس
(The Egyptian Army in Politics)
وقد صدر ـ باضافات جديدة ـ عام ١٩٦٠
- مصر فى انتقال · للكاتبين الزوجين الفرنسيين : جان وسيمون لاكوتير · وقد صدر فى باريس عام ١٩٦٢
(وقد عرضته عن ترجمته الانجليزية بعنوان
(Egypt in transition
- الاصلاح الزراعى وتطوير الأرض فى الشرق الأوسط ··
للكاتبة الانجليزية : دورين وارينر
وقد صدر عام ١٩٦١

ولقد كان اختيارى هذا على أساس أن الكتاب الأول (الريس) ؛ يركز فى كثير من صفحاته على « شخصية » عبـــد الناصر ··· وأن الكتاب الثانى يركز على « أداة » ثورة عبد الناصر ، وأن الـــكتاب الثالث يركز على «هذه الثورة ذاتها» فى بعض أوجه تأثيرها داخل مصر

•• وأن الكتاب الرابع يركز على واحد من أبرز انجـــازات الثورة : « الاصلاح الزراعى » ••

ونستطيع من خلالها جميعا أن نرى كيف كان الغرب بصفة عامة يرى عبد الناصر •• وثورة عبد الناصر •• مع ملاحظة أن هذه الكتب فى مجموعها صدرت قبل حوالى عشر سنوات ؛ فترة غنيـــة بالأحداث •• بالاضافة الى أن كثـــيرا من أوجه نشـــاطات الثورة وانجازاتها كان لا يزال فى بدايته فى الفترة التى صدرت فى أعقابها هذه الـكتب ••

من هنا فان كثيرا من التساؤلات التى كانت تجىء فىهذه الكتب وجدت الاجابة عليها فى السنوات التالية لصدورها وخاصة بعـد صدور الميثاق •• وبعد قرارات يوليه الاشتراكية ••

وبعد •• فهذا جهد متواضع أقدمه الى روح أعظم الرجال ••

الى روح عبد الناصر ••

سعد زغلول نصار

القاهرة فى نوفمبر ١٩٧٠

مقدمة

« وما دام فى الأرض حر وثائر

وما دام فيها حياة

فما مات ناصر ••

ولا غربت من يديه الحياة •• »

الشاعر : محمود حسن اسماعيل

*** * ***

عندما يكتب تاريخ هذه المنطقة •• بل عنـــدما يكتب تاريخ حركة التحرر الانسانى بوجه عام فى الحقبة من التاريخ التى أعقبت الحرب العالمية الثانية •• فان الراحل العظيم : عبد الناصر ، ســوف يحتل منه ولا شك الجانب الأكبر من صفحاته •• ليس لأنه استطاع أن يغير وجه الحياة السياسية والاجتماعية فى هذه المنطقة فحسب •• وليس لأنه كان علامة مضيئة فى طريق الأحرار فى كثير من أقطـار الأرض فحسب •• ولكن لأنه فى البداية والنهاية كان ظاهرة فـذة تبلور فيها ضمير الانسان فى كل أرض •• آلانسان الذى سحقتـه العذابات الطويلة على امتداد سنى القهر والاستعباد بكل أشكالهما ، والذى طال توقه واشتياقه الى عالم أفضل تسود فيـــه كلمـة الحق والحرية ••

لم يكن عبد الناصر يمثل ضمير مصر ‥ ولا ضمير الأمة العربية فحسب ‥ بل كان فى هذه الحقبة من التاريخ يمثل ضمير الانسانية فى انطلاقها نحو غد أفضل ‥ ومن أجل ذلك ، حظيت شخصيته ـ على المستوى الانسانى ـ باهتمام لم تكد تحظى به شخصية قائد أو زعيم من قبله ‥

من جانب الأصدقاء والمنصفين ، كانت شخصيته تمثل نموذجا رائدا فريدا جديرا بتتبع كل أعماله ومنجزاته وخطواته الثورية ‥

ومن جانب الأعداء ‥ كانت تمثل خطرا حقيقيا لابد معه أيضا من تتبع ذلك كله ‥ مع محاولة للنفاذ الى أعماق هذه الشخصية لمعرفة السر الذى يكمن وراء تأثيرها المذهل الذى تحققت بداياته قبل أقل من عامين على اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ‥

على أن الجانبين ـ الأصدقاء والأعداء على السواء ـ قد اتفقوا على شىء واحد : هو أن عبد الناصر ـ كما أسلفنا القول ـ ظاهرة فريدة لا تتكرر كثيرا ‥‥ من هنا نستطيع مثلا أن ندرك ما كان يقصده الكاتب الصحفى الهندى « كارانجيا » حين قال : ـ « هناك قلة من الناس فى تاريخ العالم ، أدوا أدوارا حاسمة ، وتركوا آثارا بالغة الأهمية والخطورة فى تحويل مجرى التاريخ الإنسانى ٠ وسيظل اسم جمال عبد الناصر فى طليعة هؤلاء الناس ‥ مشرقا وضـــاء » ‥ أو ما قالته صحيفة « بليتز » الهندية : ـ « ان عبد الناصر هو القائد الاستراتيجى الأول فى توجيه سياســة أفريقيا وآســيا ، وأنه قاد شعب القارتين الى مستقبل أفضل» ‥ أو ما قاله «أحمد سيكوتورى» مخاطبا شعب مصر : ـ أنتم عظماء ‥ لأنكم عرفتم شروط العظمة ؛ وهذه العظمة هى أنكم عرفتم المثل العليا ؛ وان العظمة التى جاء بها زعيمكم جمال عبد الناصر ليست موجهة لكم ؛ ولكن لكل شـعوب العـالم ٠ والشرط الأول لعظمته هى الحرية التى تنشـدونها لـكل

لشعوب » ٠٠ أو ما قاله « جورج براون » وزير خارجية بريطانيا السابق : ــ « ان نبأ وفاة الرئيس عبد الناصر هو أسوأ نبأ سمعته في حياتي ٠ لقد كان ناصر من أعظم رجال العالم » ٠٠٠ أو ما قاله «أمينتوري فانفاني» : ــ لقد كانت شعبيته في العالم العربي؛ وهيبته ومركزه العظيم في العالم كله ، اعترافا بعمله الدائب الذي لا يعرف الكلل في سبيل تحرير العمال والفلاحين في مصر من الذل والاقطاع » ٠٠٠

والرجل ٠٠ « الظاهرة الفريدة » ٠٠ التي لا تتكرر كثيرا ، ٠٠ لا يمكن أن يوصف بذلك الا اذا كان قد ترك وراءه انجازات وأعمالا لم يكن للرجل العادي أن يحققها ٠٠ والا اذا كان قد ترك بعد رحيله أفكارا ومبادىء تشكل في مجموعها « مذهبا سياسيا » تستطيع الجماهير من خلاله أن تحقق مزيدا من الانجازات ومن الأعمال ٠٠ والا اذا كان ــ على المستوى الانساني العالمي ــ قد ترك بصمات واضحة في الطريق الذي يحقق الكرامة الانسانية للشعوب المتطلعة الى هذه الكرامة ٠٠٠ لا بد أن يكون ذلك متحققا حتى يوصف هذا الرجل العظيم ــ كما أجمعت آراء الأصدقاء والأعداء على السواء ــ بأنه « ظاهرة فريدة » ٠

وأبرز ما في هذه الظاهرة اذن ، ان عبد الناصر العظيم ، كان زعيما على المستوى المصري لم تعرف مصر على طول تاريخها من يطاوله أو يدانيه من حيث تأثيره على الحياة داخل مصر ومن حيث ما أحدثه من تغيير جذري عميق على كل أوجه الحياة فيها الى الأفضل ٠ وانه كان زعيما على المستوى العربي ، ولم تشهد المنطقة العربية أخلص منه ولا أعمق ايمانا بالعروبة ٠٠ ولا أكثر عطاء فكريا من أجل تحقيق الكرامة للشعب العربي كله ٠٠ وأنه كان زعيما على المستوى العالمي ، استطاع أن يفرض على السياسة الدولية في أقل من خمس عشرة سنة تيارا

تحررياً قائما على أسس جديدة فى تصور العـــلاقات الانسانية بين شعوب الأرض ٠٠

واذا نحن حاولنا ــ فى ايجاز ــ أن نتعرف على أبرز معالم فكر عبد الناصر ومبادئه فى كل من هذه الدوائر الثلاثة لرأينا التالى :

أولا : على مستوى الدائرة المصرية فان أول ما يقال عن تأثير عبد الناصر العظيم هو أنه جعل السياسة رسالة وطنية وعملا ثوريا بعد أن كانت احترافاً ٠ وكان هذا الفهم منه للسياسة هو الأســاس الثابت والمكين الذى استطاع بعده أن يحقق لجماعـــيره وبجماهيره ما حققه ٠ وعلى هذا الأساس من الفهم ٠٠ يقول عبـــد الناصر عن « الثورة » ذاتها : « انها ليست ترفا ، بمعنى أنها ليست اجراء تلجأ اليه الشعوب لكى تستكمل به مظاهر أبهتها وتضيف الى كتب تاريخها حكاية تروى وقصة تحكى ٠ ان الثورة اجراء تلجأ اليـــه الشـعوب مضطرة حين تفشل جميع الوسائل العادية فى تلبية مطالبها العميقة» ٠٠٠ وعلى هذا الاساس من الفهم أيضا يقول عبد الناصر عام ١٩٦٢ فى مناقشات اللجنة التحضيرية للميثاق الوطنى : « لو تحركت الثورة المضادة للانقضاض على منجزات الثورة ، لارتديت الكاكى ونزلت الى الشارع أدافع عنها بدمى » ٠٠٠

فهو لم يكن سياسيا محترفا ٠٠ وهو أيضـــا لم يكن « ثائراً محترفا » ٠٠ من أجل هذا استطاع أن يحقق الكثـــير ٠٠ وأن يترك من الفكر الكثير لأنه تحرر منذ اللحظـــات الأولى لثورته من احتراف السياسة ، وبالتالى فانه لم يكن حريصا على ما يحرص عليه عادة السياسى المحترف من مكاسب شخصية الأمر الذى يحرفه دائما عن مصالح الجماهير ومطالبها المشروعة ٠٠ ولم يكن أيضا يعرف من الثورة الا أنها (حل أخير) وليست حرفة هى الأخرى ٠٠ وبالتالى فانه فهم منها فحسب انها تعنى « الاستجابة » الى هـــذه المصالح

المطالب المشروعة فى الحسم والسرعة والاخلاص التى تتطلبها الثورة الحقة ٠

وأول انجاز ثورى حققه عبد الناصر ، أوضح فى جلاء ــ ومنذ البداية ــ أنه لم يجىء « محترف سياسة » ؛ قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر بعد أقل من ثلاثة أشهر من بدء الثورة ٠٠ كان دليلا على أن عبد الناصر جاء لكى يحقق شيئا ما٠٠ ولم يجىء لمجرد أن يحكم٠ وآخر عمل على المستوى القومى حققه عبد الناصر كان دليلا على أنه لم يعرف طول حياته من الزعامة الثورية ، أنها احتراف يتخذ المناورة والمداورة والالتواء أسلوبا مفضلا للعمل٠٠ كان كزعيم ثورى يحرص أول ما يحرص على « وقف نزيف الدماء » فى الأردن ، دون اعتبار لمناورات ومزايدات محترفى الثورات والانقلابات ٠٠

بهذا الفهم للسياسة ٠٠ وللثورة استطاع عبد الناصر على مدى ثمانية عشر عاما أن يقدم للجماهير فى مصر نظرية سياسية واضحة متكاملة المعالم ، سواء على مستوى « الفكرة » أو مستوى « التطبيق ومنهج العمل » ٠

فى بداية الثورة ، كانت هناك أهداف ستة معلنة :

القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين

القضاء على الاقطاع

القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم

اقامة عدالة اجتماعية

اقامة جيش وطنى قوى

اقامة حياة ديموقراطية سليمة ٠

لم يكن هناك غير هذه المبادىء الستة التى كانت كما وصفها الراحل العظيم فى ٢٦ مارس سنة ١٩٦٤ (افتتاح مجلس الأمة) : « مجرد اشارات الى طريق صعب وبعيد » ٠٠ على أن كل واحد من هذه المبادىء ـ كما قال أيضا الراحل العظيم ـ تحول على مدى السنين التالية « الى سلاح يحقق انتصار الانسان المصرى وسيادته » ٠

ولندع الآن جانبا مبدأى : « القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين » و « أقامة جيش وطنى قوى » باعتبارهما لا يمثلان اتجاهاً أو مذهباً سياسيا ، على أساس أن الأول منهما كان ضروريا للبدء فى تحقيق المبادىء الأخرى بدون عوائق أو حواجز ، وعلى أساس أن الثانى منهما كان ضروريا لحماية كل ما يتحقق من مبادىء أخرى ٠٠

ولننظر فى المبادىء الأربعة الباقية :

القضاء على الاقطاع

القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم

اقامة عدالة اجتماعية

اقامة حياة ديموقراطية سليمة

ذلك أن « العمل » من أجل تحقيق ذلك هو وحده الذى يمكن أن يشكل مذهبا سياسيا ، اذا كان هذا العمل قائما على أساس من « نظرية » تحدد طبيعة العلاقات بين أطراف المجتمع المصرى ٠

فى هذا الصدد ٠٠ فقد كانت هناك «نظرية» حددها عبدالناصر وارتضتها الجماهير لكى تكون أساسا لهذا العمل ٠٠ ومجمل وصف هذه «النظرية» أنها تجىء فى اطار الايمان «بحتمية الحل الاشتراكى» ـ بمنهجه ـ باعتباره حلا علميا انسانيا للتقدم والتطور ٠ وفى اطار

الديموقراطية الشعبية » التى تمكن قوى الشـــعب من أن تمارس حقوقها ومسئولياتها فى صنع هذا الحل وحمايته وتطويره واضعــة نصب عينيها فى المحل الأول أن الانســـان ليس مجرد أداة انتـاج واستهلاك ، وأنه أيضا ليس مجرد رأسمال رخيص أو ثمين ٠٠ بل انه هو بذاته : غاية الحل الاشتراكى وهدفه ٠٠ كما أنه هو بذاته صانع هذا الحل وليس مجرد وسيلة لصنعه ، وأن العبيد وحدهم هم القادرون على حمل الحجارة ، ولكن الانسان الواعى الحر هو القادر على صنع الحياة ٠٠

ومجمل وصفها أيضا ٠٠ أنها فى ايمانها بالحل الاشتراكى ، ترى أن الاشتراكية هدف نهائى فى حد ذاته وليس هدفا مرحليا ٠٠ وأنها فى ايمانها بالديموقراطية الشعبية ترى أن التناقض الطبقى وان كان حقيقة ثابتة لا يمكن تجاهلها ، فانه يمكن مواجهتها بالاذابة وليس بالتصفية ، وانه لا يمكن ـ تعـــللا بوجودها أو استخلاصا نظريا منه ـ لا يمكن أن يعنى سيطرة طبقة على الحكم ٠٠ وانما يمكن أن يكون « الحكم » لكل الطبقات صاحبة المصلحة فى الثورة ٠٠ فى تحالف يصنع الحياة ٠

على هذا الأساس من الفهم ، فان النظرية السياسية «الناصرية» فى مجال تطبيقها :

- قضت على الاقطاع دون أن تصفى الاقطاعيين كأفراد ٠
- قضت على الاحتكار وسيطرة رأس المـال على الحكم دون أن تغفل امكانية اسهام رأس المال غير المستغل فى صنع الحياة ٠
- وضعت أسسا ثابتة لتحقيق العدالة الاجتماعية التى تعنى فى النهاية « كفاية الانتاج ٠٠ وعدالة التوزيع » للثروة الوطنية ٠٠

● أقامت نموذجا رائدا فى صدد تحقيق الحياة الديموقراطية السليمة فى اطار تحالف قوى الشعب العامل : فى صيغة « الاتحاد الاشتراكى » ٠

واذا نحن تركنا التطبيق ، وعـدنا عـكسيا الى النظرية ٠٠ فسوف نرى أن النظرية السياسية الناصرية استطاعت أن تقدم رأيها فى مجموعة من المواقف أو العلاقات تحدد فى النهاية المعالم الواضحة لهذه النظرية التى أصبحت تملكها مصر لأول مرة فى التاريخ ٠٠٠

أولا : فى صدد علاقة الانسان بمجتمعه ، فقد رفضت النظرية ـ ككل نظرية اشتراكية ـ أن يكون « الفرد » هو نقطـة البدء فى التنظيم الاجتماعى كما تقول النظرية الرأسمالية ٠ ولكنها فى نفس الوقت رفضت ـ وبحسم ـ أن يكون « الفرد » مجرد « حجر » فى بنـاء ٠٠

موقف النظرية الناصرية ، أنه لا تناقض على الاطلاق بين الفرد وبين الجماعة ، فالانسان الفرد بابداعه وخلقه هو وجـه من عمـلة ، والوجه الآخر هو كل انسان آخر فى المجتمع ٠

وفى هذا الصدد يقول الراحل العظيم عبد الناصر فى «الميثاق» :

● « ان الانسان الحر ، هو أساس المجتمـع الحر وبنـاؤه المقتدر »

وفى هذا الصدد أيضا يقول :

● « ان التقدم عن طريق النهب أو التقدم عن طريق السخرة لم يعد أمرا محتملا فى ظل القيم الانسانية الجديدة » ٠

ثانيا : فى صـدد الصراع الطبقى ٠٠ فقد يقول عبد الناصر :

● « ان الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقـات لا يمكن تجاهله أو انكاره . وانما ينبغى أن يكون حله سليما فى اطـار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات .. ان الرجعية تتصادم فى مصالحها مع مصالح مجموع الشعب بحكم احتكارها لثروته ، ولهذا ، فان سلمية الصراع الطبقى لا يمكن أن تتحقق الا بتجريد الرجعية أولا وقبـل كل شىء من جميع أسلحتها . ان ازالة هذا التصادم يفتح الطريق للحلول السلمية امام صراع الطبقات . ان ازالة التصادم لا يزيل التناقضات بين بقيـة طبقـات الشعب ، وانما هو يفتح المجـال لامكانية حلهـا سلميا » .

ثالثا : فى صدد موقف النظرية من « الملكية » .. فقد كان ايضا واضحا فى رفضه الحاسم لكل أشكال استغلال الانسان للانسان . ولكنهـا ـ أى النظرية ـ لم ترتب على ذلك الغاء الملكية على الاطلاق ، وانما تحدد موقفها من الملكية على أساس كونها ملكية مستغلة أو ملكية يمكن أن تؤدى الى الاستغلال ، فان كانت كذلك فهى مرفوضة وبحسم . وان لم تكن كذلك ، ففى مقدورها أن تستمر وأن تعمل ، ولكن فى اطار خط عام .. أو تخطيط عام لا يتناقض مع الدور الأكثر أهمية . وهو دور الملكية العـامة (ممثلا فى القطاع العام) .. وفى هذا الصدد يقول الراحل العظيم فى الميثاق : ـ

● « ان سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج ، لا تستلزم تأميم كل وسائل الانتاج ولا تلغى الملكية الخاصة .. ولا تمس حق الارث الشرعى المترتب عليها .. وانما يكون الوصول اليهـا بطريقين : ـ

أولهما : خلق قطاع عام قوى وقادر يقود التقدم فى جميع المجالات ، ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية » ·

« ثانيهما : وجود قطاع خاص يشارك فى التنمية فى اطار الخطة الشاملة لها .. من غير استغلال . على أن تكون رقابة الشعب شاملة للقطاعين مسيطرة عليهما معا » .

رابعا : .. فى صدد موقف النظرية من الحكم والسلطة ، فقد رفضت ديكتاتورية الطبقة الواحدة ، بل رأت أن يكون الحكم .. وأن يكون السلطة لتحالف قوى الشعب العاملة فى فى اطار تنظيم سياسى رائد (الاتحاد الاشتراكى العربى) .. وفى هذا .. يقول الراحل العظيم فى الميثاق : ـ

● « ان الديموقراطية السياسية لا يمكن أن تتحقق فى ظل سيطرة طبقة من الطبقات ، ان الديموقراطية حتى بمعناها الحرفى هى سلطة الشعب ، سلطة مجموع الشعب وسيادته » .

خامسا : فى صدد موقف النظرية من القيم الروحية ، فان الحسم والوضوح يتضح فيما يقول الراحل العظيم فى الميثاق :ـ

« ان حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة · ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان ، قادرة على هداية الانسان وعلى اضاءة حياته بنور الايمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة . أن رسالات السماء كلها ــ فى جوهرها ــ كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الانسان وسعادته ، وان واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته · ان جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وانما ينتج

التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ـ ضد طبيعته وروحه ـ لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية . لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية . ان جوهر الأديان يؤكد حق الانسان فى الحياة .. وفى الحرية » .

***

تلك ـ فى ايجاز ـ معالم النظرية السياسية التى قدمها عبد الناصر لجماهيره فى مصر .. وهى لا تنفصل بحال من الأحوال عن دوره كزعيم على المستوى العربى بالصورة التى أوضحناها فى بداية هذه المقدمة .. ذلك أنه فى ذات الوقت الذى قدم فيه هذه النظرية على المستوى « الوطنى » ، .. فان هذه النظرية طرحت نفسها واضحة محددة على المستوى القومى العربى باعتبارها أول نظرية علمية متكاملة تستطيع أن تؤكد وجودها وصلاحيتها على هذا المستوى (القومى) .. باعتبارها عربية الملامح .. عربية الجذور ، وباعتبارها أيضا صيغة علمية فى تصور الثورة العربية وأهدافها وأداتها أثبتت رسوخها بالتجربة والمعاناة ..

واذا كانت مصر ، بوجهها العربى الذى جلاه عبد الناصر ، جزءا لا يتجزأ من وطن عربى بشكل « أمة عربية واحدة » .. فان النظرية السياسية التى قدمها عبد الناصر قادرة ـ علميا ـ على ان تطرح نفسها (وقد فعلت) بثبات على المستوى العربى القومى ..

هذه الأمة العربية .. التى تملك « التاريخ » الواحد المشترك .. والتى تملك « الوطن الجغرافى » الواحد الذى لا تفصله من الحواجز ما يقطع حبال الصلة البشرية المتكاملة الى أبعد

الحدود ·· والتى تملك « اللغـــة » الواحدة و « التكوين النفسى » الواحد النابع عن حضـــارة واحدة مشتركة ·· والتى تملك مقدمات اقتصادية يمكن أن تشكل « وحدة اقتصادية » متكاملة ..

.. هذه الأمة العربية التى تملك اذن مقــومات « القومية الواحدة » ، وجدت ـ لأول مرة فى تاريخها ـ نظرية ســياسية تغطى كل أهدافها التى تبلورت فى شعار « حرية ، اشتراكية ، وحدة » برغم كل ما قد يبدو من تناقضات تحاول قوى الاستعمار والرجعية أن تضخمها . ذلك أن كل ما يمكن أن تطرحه هـــذه القوى من تناقضات فى الوطن العربى .. انما هو مفروض وغير طبيعى واذا نحن حاولنا أن نحصر بعض هذه التناقضات فهى لن تخرج عن « التجزئة » أو « البلقنة » التى فرضها الاستعمار على الوطن العربى الواحد ، .. و « الاستغلال » الذى تفرضـــه الرجعية المتحالفة مع الاســـــتعمار ·· و « التخلف » الذى تختلف درجته من قطر عربى الى آخر والذى جاء نتيجـــة حتمية ومنطقيـــة للتجزئة والاستغلال .. وذلك كله لا يمكن أن يقيم « حاجزا » يحول دون « الوحـــدة » ·· أو بمعنى أكثر دقـة ·· لا يمكن أن يحول دون « العودة الى الأمر الطبيعى « للأمة العربية الواحدة » ·· وهنا ، تجىء النظرية السياسية الناصرية « عربية الوجه » نابعة من جذور عربية واحـــدة مشتركة ، قادرة على حل هـــذه التناقضات المفروضة على المستوى القومى العربى ، بنفس قدر نجاحها فى حـــل التناقضات التى كانت مفروضة على المستوى الوطنى ·

على أن ذلك وحده ـ أى النظرية السياسية التى قدمها عبد النـــاصر لجماهيره العربية ـ لم تكن وحدها التى جعلت منـــه ذلك الذى كان يمثله فى قلوب الجماهير العربية وفى عقولها بمثل ما لم يمثله زعيم عربى من قبل ..

ان عبد الناصر العظيم .. كان يمثل بالنسبة لجماهير الأمة العربية .. « العروبة » ذاتها .. أن عبد الناصر استطاع ان يقدم لفكرة « العروبة » و « القومية العربية » مالم يقدمه زعيم عربى آخر على طول تاريخ الأمة العربية .. أن عبد الناصر استطاع بفهم وادراك عميقين أن يدرك « أن مسئولية ج.ع.م فى صنع التقدم وفى تدعيمه وحمايته ، تمتد لتشمل الأمة العربية كلها » * .

ان عبد النـــاصر .. هو الذى جعل من « حلم » الوحـــدة العربية ، .. حقيقة ممكنة بل حتمية ازاء كل تحديات العصر .. ان عبد الناصر هو الذى وضع ما يمكن أن نسميه أيضا « بنظرية تحقيق الوحدة العربية » .. وهى تتلخص فيما يلى (*) : —

أولا : « ان الأمة العربية لم تعـــد فى حاجة الى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها » .

ثانيا : « ان التقـاء القوى التقدمية الشعبية على الأمـــل الواحد فى كل مكان من الأرض العربية ، وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة فى كل مكان من الأرض العربية ، هو في حـــد ذاته دليل على الوحدة أكثر مما هو دليل على التفرقة » .

ثالثا : « ان وحدة الهدف حقيقة قائمة عن القواعد الشعبية فى الأمة العربية » .

رابعا : « ان وحدة الأمة العربية قد وصلت فى صلابتها الى حد انها أصبحت تتحمل مرحلة الثورة الاجتماعية » .

خامسا : « ان الوحدة لا يمكن — بل ولا ينبغى أن تكون —

---

* الميثاق (الباب التاسع) .

فرضا ، فان الأهداف العظيمة للأمم يجب أن تتكافأ أساليبها شرفا مع غاياتها » ٠

سادسا : « ان أى وحدة جزئية فى العالم العربى ، تمثل ارادة شعبين أو أكثر من شعوب الأمة العربية ، هى خطوة وحدوية متقدمة ، تقرب من يوم الوحدة الشاملة ، وتمهد لها .. وتمد جذورها فى أعماق الأرض العربية » ٠

سابعا : « ان الدعوة السليمة (الى الوحدة) هى المقدمة ، ٠٠ والتطبيق العلمى لكل ما تتضمنه الدعوة من مفاهيم تقدمية هى الخطوة الثانية للوصول الى نتيجة محققة ـ (وبالتالى) فان استعجال مراحل التطور نحو الوحدة يترك من خلفه ـ كما أثبتت التجارب ـ فجوات اقتصادية واجتماعية تستغلها العناصر المعادية للوحدة كما تطعنها من الخلف (وبالتالى أيضا) فان تطور العمل الوحدوى نحو هدفه النهائى الشامل يجب أن تصحبه بكل وسيلة جهود عملية لملء الفجوات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة من اختلاف مراحل التطور بين شعوب الأمة العربية . هذا الاختلاف الذى فرضته قوى العزلة الرجعية والاستعمارية » ٠

على هذا الأساس من الفهم .. رأى عبد الناصر أن « الجمهورية العربية المتحدة ـ وهى تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية ، لابد لها أن تنقل دعوتها والمبادىء التى تتضمنها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربى ولا ينبغى الوقوف لحظة أمام الحجة القديمة التى قد تعتبر ذلك تدخلا منها فى شئون غيرها »(الميثاق)

واذا كان على الجمهورية العربية المتحدة ـ كما أوضح

* الميثاق الباب التاسع (الوحدة العربية) ٠٠

الراحل العظيم ـ أن تحرص « على ألا تصبح طرفا فى المنـازعات الحزبية المحلية فى أى بلد عربى » (الميثـاق) ، .. فان ذلك لا ينفى أنها ـ أى الجمهورية العربية المتحدة ـ « تشعر أن واجبها المؤكد يحتم عليها مساندة كل حركة شعبية وطنية .. فى اطـار المبادىء الأساسية » وتشعر أن من واجبها أيضا « أن تفتح مجال التعاون بين جميع الحركات الوطنية التقدمية فى العالم العربى .. وبأن تتفاعل معها فكريا من أجل التجربة المشتركة » ..

على هذا الأساس ، .. كان عبد الناصر يعمل على المستوى القومى العربى ..

● غـرس ، وكرس الى الأبد فكرة العـروبة والقومية العربية .. وامكانية ـ بل حتمية ـ الوحدة العربية ..

● استطاع ـ بالتجربة ـ أن « يؤكد هذه الامكانية » .. وبالتجربة أيضا ، .. أكد أنه ينبغى ألا « تستعجل » .

● استطاع أن يقدم للأمة العربية بجماهيرهـا الباحثة عن حلول لمشاكلها نموذجا رائدا فى التقدم والتطور على أساس من نظرية سياسية علمية متكاملة .

● استطاع ـ واقعا وعملا ـ أن يساند كل حركة تحررية عربية على أساس ما أعلنه من مبادىء أساسية بغير ما هـدف الا تقدم الجماهير العربية وخطوها نحو آمالها .

● جعل من الجمهورية العربية المتحدة درعا واقيـة لآمال هذه الأمة ـ برغم كل التضحيات ـ على أساس ما كرسه كمبدأ ثابت يفرضه التاريخ والواقع والضرورة الوطنية والقومية معا من « أن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة فى صنع التقـدم وفي تدعيمه وحمايته ، تمتد لتشمل الأمة العربية كلها » .

ذلك ما جعل عبد الناصر العظيم ، .. يحتـــل من قلوب الجماهير العربية مكانا لم يتحقق لعربى قبله ·· ولا أرى أنـه سيتحقق لعربى بعده . وذلك ما جعل هذه الجماهير تبكيه بعـد رحيله عنها كما لم تبك فى تاريخها أحدا من قبل ·· وذلك ما جعلها بعد رحيله تنظر الى المبادىء والمثل والقيم التى كان يمثلهــا باعتبارها الطريق الوحيد الى آمالها وأهـدافها التى استشهد القائد العظيم فى سبيلها ..

***

وعلى المستوى الانسانى .. العالمى ، ترك عبد الناصر العظيم بصمات فكره واضحة فى ثلاثة معالم واضحة :ـ

أولا : بالنسبة للدول النامية ، ·· فانه قدم نموذجا رائدا « للثورة التحررية » نظرية . وتطبيقا ، .. ولم يكن أبدا من قبيل الصدفة ، ·· أن تتحرر احدى وأربعـون دولة افريقيـة بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ·· ولم يكن غريبا أيضا أن تختـار أكثر هذه الدول « الحل الاشتراكى » طريقا للتقـدم .. أو ان تدرس هى وكثيرا غيرها فى القارة الآسيوية أو فى أمريكا اللاتينية التجربة المصرية العربية الناصرية لتأخذ منها ما يلائمهــا .. وبالتالى لم يكن غريبا أيضا أن يقــول « كاسترو » : « لو أن عبد الناصر رشح نفسه للرئاسة فى كوبا لحصل على اجمـــاع الاصـوات .

ثانيا : بالنسبة لحركة التحرر العالمى ، ·· فان عبـد الناصر كان أبرز الزعماء العالميين فى هذا العصر دفاعا عن حق الشعوب فى الحرية . ومسـاندة لكل حركة تحررية فى هذا العالم .. ودعما

لهـــا .. ومن هنا نستطيع أن نفهم قول « جواهر لال نهرو » :
« لا ريب أن عبد الناصر من الرجـــال الذين حولوا مجـــرى التاريخ » ..

وحين يقول عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » : ـ

« لقد مضى عهد العزلة .. وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة تخطط حدود الدول .. تفصل وتعـزل ولم يعد أمام كل بلد مفر من أن يدير بصره حوله خارج حـدود بلاده ، ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه وكيف يمكن أن يعيش من غيره .. وكيف .. وكيف .. » « ولم يعد أمـام كل دولة مفر من أن تجيل بصرها حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان .. وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالهـــا الحيوى وميدان نشاطها .. ودورها الايجابى فى هذا العـــالم المضطرب » ..

حين يقول عبد الناصر العظيم .. ذلك ، .. فقد كان يعنى فى المحل الأول أن « الحرية لا تتجزأ » .. وأن أى حركة تحررية فى العالم انما هى بالضرورة ـ ضرورة العصر ـ سند للحـرية فى الجمهورية العربية المتحدة ، لأنها ـ وبالضرورة أيضا ـ تقـلم أظافر الاستعمار العالمى .. ولقد أوضح ذلك فى السنوات الأولى لثورته الخالدة .. فى مايو عام ١٩٥٥ أعلن أمام المواطنين (بعد عودته من مؤتمر باندونج) : ـ

« لقد ذهبت لأعلن باسمكم ، أن مصر ـ بعد أن ذاقت طعم الحرية ـ ستعلن رأيها مستقلا فى سبيل الحق ، وفى ســـبيل الحرية ، وفى سبيل تحرير الشعوب والانسان » ..

ومنذ ذلك التاريخ ـ وحتى قبل ذلك التاريخ ـ لم ين جمال

عبد الناصر عن مد يد المساندة والعون والدعم المعنوى أو المادى، لكل حركات التحرر فى العالم أجمع ، حتى لقد أصبحت «الناصرية» فى يوم من الأيام .. تهمة توجهها الدول الاستعمارية الى كثير من حركات التحرر في الدول النامية .. والى قادتها ! وحتى لقد بدأ بعض قادة دول الغرب ذاته يخشون من « الناصرية » على شباب هذه الدول . ان « جى موليبه » مثلا يقول فى عام ١٩٥٦ :ـ

« لو سقط عبد الناصر ، فسوف تنتهى حرب الجزائر فى ٢٤ ساعة .. نحن نعتقد أنه لولا عبد الناصر لما اضطررنا الى أن نمنح مراكش استقلالها ، ولا أن نمنح تونس استقلالها .. بل ان نظامنا الديموقراطى نفسه داخل فرنسا مهدد من جمال عبد الناصر .. ان كثيرا من الضباط الشبان يقولون انه لا ينفع فرنسا فى ظروفها الحالية سوى ضابط مثل جمال عبد الناصر ، وان أحزابنا لافائدة منها .. ومعنى هذا أن كل مؤسساتنا البرلمانية الديموقراطية فى داخل فرنسا ذاتها مهددة بوجود هذا الرجل ! » .

ثالثا : بالنسبة للعلاقات بين دول العالم ، .. فقد اختار عبد الناصر شكلا جديدا من العلاقات .. أسهم هو فى صنعه وطرحه وتحقيقه ليكون الشكل المثالى لموقف لدول النامية (دول العالم الثالث) من المعسكرين الكبيرين الذين يمثل الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية قطبى الرحى فيهما .. الحياد الايجابى .. وعدم الانحياز ، باعتبارهما :ـ

١ ـ يتيحان حرية الموقف والرأى لهذه الدول .

٢ ـ يتيحان الاستفادة المشروعة من كلا المعسكرين دون مساس باستقلال هذه الدول وحرية حركتها .

٣ ـ يتيحـان لهـذه الدول أن تصـبح عاملا من عوامل تخفيف حدة التوتر الدولى بعيدا عن استقطاب أحد المعسكرين . الأمر الذى يدعم السلام ويسهم فى حل المشكلات الدوليـة على أساس من العدل وبالوسائل السلمية ..

وفى مؤتمر « باندونج » كان اعلان هذا الشكل الجديد من العلاقات الدولية . وعلى مدى خمسة عشر عاما بعـده ، التزم عبد الناصر التزاما رائعا بما أسهم هو فى صنعه . حتى ليقول فى ديسمبر عام ١٩٥٧ (فى ذكرى عيد النصر فى بورسعيد) : ـ

« اليوم .. من بورسعيد ، نتجه الى العالم كله ، ونطالب بتثبيت قواعد العدالة وحق تقرير المصير .. نتجه من بورسعيد للعالم كله ، ونطالب بأن تعطى كل دولة مستعمرة اسـتقلالها لتحكم نفسها بنفسها .. نطالب بالقضاء على التمييز العنصرى فى افريقيا .. وأن يكون لأهل أفريقيا حـق مساو لجميع السكان الموجودين فى بلدهم .. ومصر تطلب اليوم من العـالم كله ، أن يعمل بكل طاقته من أجل دفع شبح الحرب .. ننظر اليوم من بور سعيد للعالم ، ونجد أن المحاولات التى بذلت لاعطاء أسـلحة ذرية لدول أكثر . ولتخزين الأسلحة الذرية فىأوروبا وفىتركيا ،.. نقول : أن هذا يعتبر تهديدا لنا . وان مصر ، أيها الاخوة ، برغم ما قاسيناه ، تتبع سياسة عدم الانحياز ، سـياسة الحياد الايجابى لكى يوسع معسكر السلام ، لأن العالم اذا انقسم الى معسكرين، وأصبحت دول العالم منقسمة ، جزء منها مع هـذا المعسكر ، وجزء مع المعسكر الآخر ، فلا بد أن تقوم حرب .. ولا بد أن تقاسى البشرية الأهوال » .

ذلك أيضا ـ وفى ايجاز شـديد ـ ما تركه عبد الناصر العظيم من فكر واضح على المستوى العالمى ..

من أجل ذلك كله ..

من أجل أن عبد الناصر . كان يمثل ضمير مصر ، وضمير الأمة العربية ، .. وضمير الانسانية فى انطلاقها نحو غد أفضل..

من أجل ذلك كله .. فان شخصية عبد الناصر ، حظيت ــ كما أسلفنا ــ وعلى المستوى الانسانى ، باهتمام لم تكد تحظى به شخصية قائد أو زعيم من قبله ..

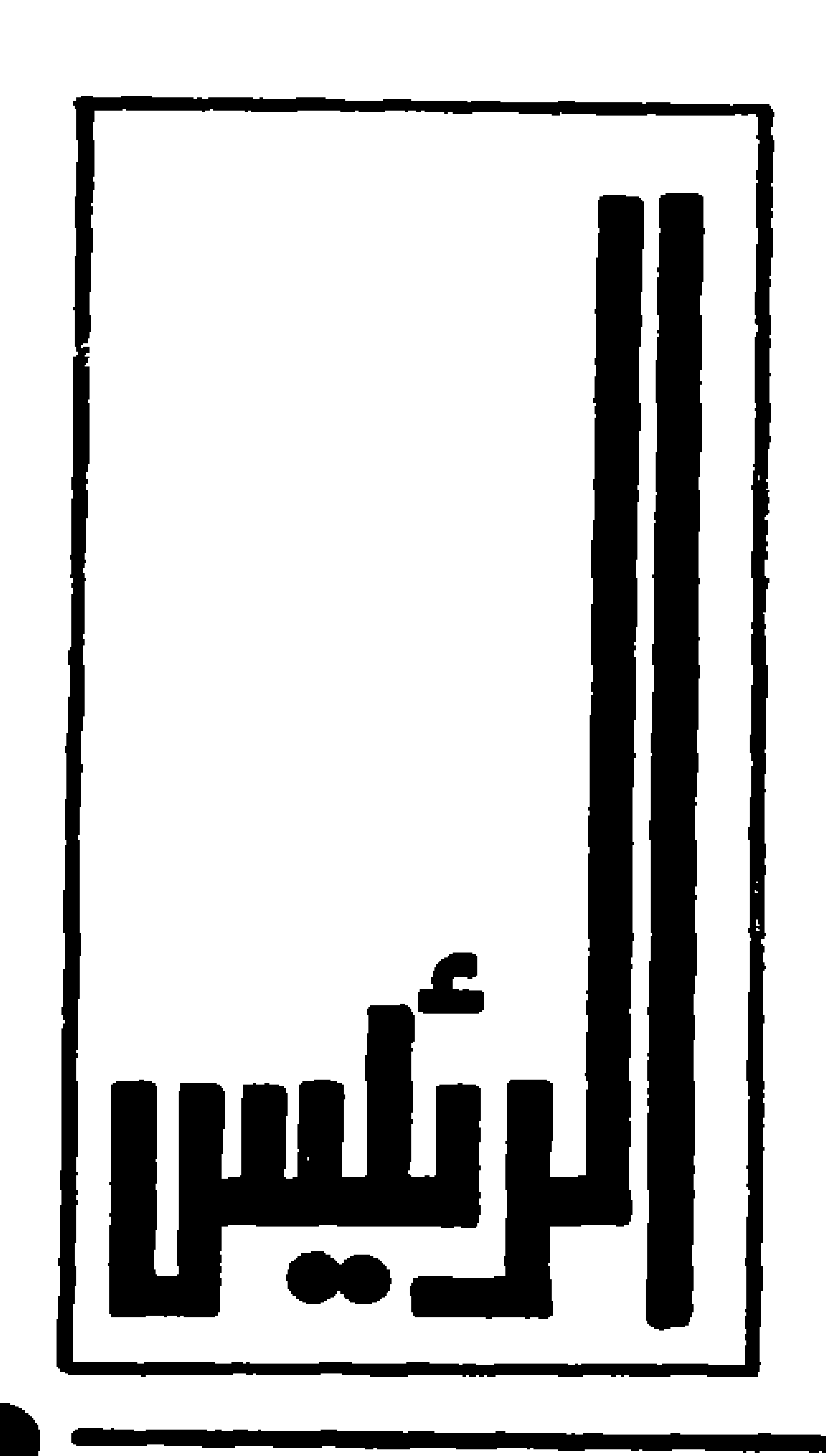
من أجل ذلك كله أجمعت آراء الأصدقاء والأعـــداء على السواء بأن عبد الناصر « ظاهرة فريدة » ..

ومن أجل ذلك كله صدر فى عبد النـــاصر وثورته قرابة الثلاثمائة كتاب ، غير ما كتب عنـــه من دراسات فى الصـحف والمجلات فى العالم أجمع ..

***

والله ولى التوفيق .

سـعد زغلول نصار



الكتاب الأول

للكاتب الأمريكي

روبرت سان چون



الرئيس

الكاتب هو « روبرت سان جون » مؤلف ومعلق ومراسل حربى ومحاضر وواحد من الصحفيين الامريكيين اللامعين ، والكتاب وضعه صاحبه بعد اكثر من مقابلة له مع الرئيس جمال عبد الناصر ، ومع اكثر من مائة من كبار المسئولين فى الجمهورية العربية المتحدة ومع « كثير من اعداء عبد الناصر فى بلاد اخرى » استطاع « روبرت سان جون » بعدها ان يكون لنفسه رايا عن جمال عبد الناصر /فيه كثير من الصراحة ، وفيه كثير من الانصاف والبصر النافذ .

وعنوان الكتاب هو الترجمة الصحيحة لكلمة Boss التى تقابلها بالعامية كلمة « الريس » ، والمؤلف معجب بهذه الكلمة فهى لا تقابل باللغة الانجليزية كلمة « الرئيس » PRESIDENT ولكنها تحمل من معانى الحب والامتزاج والتقارب اكثر مما تعنيه الكلمة الرسمية « الرئيس » .

والكتاب الذى يقع فى ٣١٥ صفحة من القطع المتوسط مكون من ثلاثة وعشرين فصـــلا يعرض فى الفصـــول الأولى منها لحيـــاة جمال عبد الناصر حتى أصبح ضابطا بالجيش « المصرى » ويسير مع هذه الحياة الحافلة حتى أوائل عام ١٩٦٠ وأكثر ماكتبه «روبرت سان جون » فى كتابه هذا معروف «للقارىء» ٠٠ ومن ثم سيكون اهتمامنا فى هذا العرض بالجديد الذى جاء به الكتاب فى حياة جمال عبد الناصر ، الرجل الذى كان وجوده فى هذه المنطقة كفيلا بقلب كافة الموازين فيها ، الرجل الذى أنجبته احدى القرى الصغيرة فى صعيد مصر ، قرية بنى مر ٠

الى قرية بنى مر سافر « روبرت سان جون » ٠٠ بالقطار الى أسيوط ، ثم تابع سفره الى القرية الصغيرة التى لا تختلف عن أية قرية من قرى مصر العليا ، تحيط بها دائرة من أشجار النخيل التى تمنح أبناءها طعاما وظلا ومادة لسقوف البيوت المبنية من الطين ، شوارعها ضيقة لاتكاد تستطيع السيارة المرور خلالها ، بسكنها خمسة آلاف نسمة يعود أصلهم الى قبيلة « بنى مر » العربية التى خرجت من بطن الجزيرة العربية ما بين خمسمائة وألف سنة مضت ٠ بهـــا ثلاثة مساجد وكنيسة للأقباط ٠

والغالبية العظمى من أبناء هذه القرية ينتمون الى واحدة من عائلات أربعة تربط بينهما جميعا صلات النسب والمصاهرة ٠

واسم الرئيس بالكامل : جمـــال عبد النـــاصر حسين خليل سلطان ، سلطان هو الجد الأكبر ، وخليل ابنـــه ، وحسين هو جد الرئيس ، « وكان رجلا يحلفون باسمه فى القرية حتى اليوم ، مات منذ سنوات قليلة مضت وعمره مائة وسبع سنوات » ٠

أما أولاده فهم عبد الناصر « والد الرئيس » وعطية ، وسلطان، وخليل ، وطه ، وهم أعمام الرئيس : عطية وطه عاشـــا فى القرية الصغيرة يشتغلان بالفلاحة ، أما عبد الناصر وخليل فقد غادرا القرية منذ خمسين عاما الى الاسكندرية تعلما ومارسا وظائف الحـكومة ، وقد كانت مغادرتهما هذه لقرية « بنى مر » الى الاسكندرية ايذانا بأن كل شيء بعد أقل من أربعين عاما سيتغير فى هذه المنطقـــة « فأحدهما أنجب جمال والثانى دفع به لأول مرة الى طريق الثورة » وكان جمال فى الشهر السادس عندما انتقلت أسرته الصغيرة الى منزل آخر غير الذى كانت فيه فى « باكوس » بالاسكندرية ، عاش فيه أكثر أيام طفولته المبكرة ، ولا يزال يذكر تلك الفترة من حيـــاته « كما لو كانت ظلالا » وان كان لا يذكر فى أى شارع كان هذا المنزل ، ووالده وعمه خليل كذلك لا يذكران ، فقد تغيرت ولا شك معـــالم المنطقة ٠

وفى السادسة من عمره انتقلت الأسرة الصغيرة الى «الخطاطبة» وقد زادت اثنين ٠٠٠ « عز العرب » و « الليثى » شقيقى الرئيس ، وهناك أمضى « جمال » أمتع أيام طفولته ٠

وفى الخطاطبة تعلم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن وبدأ الطفل الصـغير يفـكر فى العقاب والثواب ، وفى الجنة والنار ٠

وينتقل « جمال » مع عمه « خليل » الى القاهرة وهو فى الثامنة من عمره ، وكان عمه قد خرج لتوه من السجن الذى أمضى فيه فترة طويلة من الزمن متهما بالاشتراك فى الاضطرابات السياسية فى ذلك الوقت ، وعاش جمال مع عمه فى « الموسكى » الذى كان بالنسـبة اليه وهو الطفل الصغير « أشبه بدنيا من ألف ليلة وليلة » ولـــكنه ما لبث أن ضاق به ، وفى يوم من الأيام صحبه عمه الى حى الأزهر ،

وهناك عرف الطفل ـ الذى أصبح صبيا صغيرا ـ عرف لأول مرة عن طريق عمه خليل شيئا اسمه السياسة والوطنية ، فقد كان الأزهر فى هذه الأيام معقلا من المعاقل الوطنية تتجمع عنده المظاهرات وتبدأ منه الاضطرابات •

و « جمال » يذكر كثيرا من هذه الفترة فى حياته ، يذكر جيرانه اليهود فى الموسكى وكيف كانوا يحاولون اقناعه باطفاء الأنوار يوم السبت فيرفض لأنه لا يرى فى اضاءة الأنوار «فى يوم السبت» شيئا ذا بال رغم محاولات عمه خليل الذى كان يقول له دائما « أنت أكبر واحد دماغه ناشفة شفته فى حياتى » ، ويذكر البقال اليونانى الذى كان هو وعمه يشتريان منه « الجبن والزيتون الأسمر والخبز » ويذكر يوم سار خلف « المحمل » حتى مسجد « الحسين » ليعود وقد أثارته وألهبت مخيلته الجنود بملابسهم العسكرية ويذكر مدرسة «النحاسين» حيث كان يتعلم ، والرحلات التى كانت تنظم لهم لزيارة معـــالم القاهرة ولكنه يذكر أكثر كيف « كان عمه خليل يقص عليه تجربته فى السجن التى كانت أروع بالنسبة اليه من قراءة الكتب، وفى السنة التى عاش فيها جمال مع عمه خليل تلقى منه كثيرا من الدروس العملية فى الوطنية والثورة كانت معينا لا ينضب لأحلام الصـــبا التى لا تنسى » •

وفى التاسعة من عمره توفيت والدته التى كان يحبهـا أعمق الحب ، وانتقل الصبى الصغير الى الاسكندرية ليعيش بين أحضـان جديه لوالدته ، والتحق بمدرسة العطارين الابتدائية حتى الثانيـــة عشرة ، ثم عاد مرة أخرى الى القاهرة ليعيش مع عمه « خليل » ، وفى صيف سنة من السنين سافر الى الاسكندرية ليقضى الأجازة السنوية وهناك رأى بعينيه لأول مرة كيف يلتحم أبناء الشعب من المتظاهرين بالانجليز ، وكيف يطلق هؤلاء النار عليهم وبدأ يعرف لماذا يكره عمه

« خليل » هؤلاء الناس : لقد قبضوا عليه وهو يهتف مع الهاتفين وأمضى ليلة رهيبة مع عشرات المتظاهرين فى زنزانة بأحد أقسام البوليس وكان هو أصغر هؤلاء المتظاهرين وكان فخورا بذلك ٠

بدأ الصبى اذن يعرف المزيد عن الوطنية وبدأت الأحلام تراوده وخاف الوالد على ولده فألحقه بمدرسة داخلية بحلوان ، ولكنه عاد فى السنة التالية الى الاسكندرية ليلتحق بمدرسة رأس التين الثانوية « وكان قد أصبح صبيا وسيما طويل القامة ذا منكبين عريضين » ٠

وفى سنة ١٩٣٤ كان جمال فى السادسة عشرة عندما انتقل الى القاهرة حيث كان والده قد انتقل اليها من قبل ، وبدأ الشاب الصغير يعرف الحياة السياسية عن طريق بعض الأحزاب التى كانت معروفة آنذاك ، وبدأ يشترك فى المظاهرات والاضطرابات التى كان يقوم بها الطلبة ، وعرف حزب « مصر الفتاة » فترة من الزمن حتى اكتشف فى النهاية أن رئيسه « يهتم بأرباح الحزب وجريدته واحتياطيها الذى بلغ ثلاثمائة من الجنيهات أكثر مما يهتم برسالته» ومنذ ذلك التاريخ أحس « جمال » بحقيقة الأحزاب السياسية وبحقيقة الحياة الحزبية التى تستتر وراء المبادىء والمثل لتحقق الأهداف الخاصة لرجالها ٠

وفى « البكالوريا » بدأ « جمال » يقرأ كثيرا ٠ قرأ عن مصطفى كامل ، وقرأ « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ، وعرف فيها أن الفلاحين المصريين ليسوا كما وصفهم أحد الانجليز «أفضل قليلا من الوحوش» ٠٠ ولكنه عرف أنهم يفتقرون فقط الى زعيم وقائد يجسد آمالهم ويكون رمزا لمثلهم وأن مثل هذا القائد اذا أتاحه لهم القدر فسوف يدفعهم الى فعل المعجزات ٠

وفى مدرسة « النهضة » قام المدرس مرة يشرح لتلاميذه ـ ومن بينهم « جمال » ـ درسا فى الجغرافيا فقال : « ان سكان المناطق معتدلة الجو لديهم صفات طبيعية تؤلهم لأن يحكموا غيرهم ، مثلما يفعل الانجليز مثلا » وهنا قفز جمال من مكانه ثائرا وهو يصرخ « يا أستاذ ، أنا لا أوافقك على هذا الرأى ، انت تعتبر هذا فضيلة ، وأنا أعتبره رذيلة دموية » .

وفى نفس السنة قاد « جمال » طلبة مدرسته « النهضة » فى مظاهرة احتجاج ضد وزير خارجية بريطانيا لتصريح أدلى به وجاء مخيبا لآمال المصريين ، وأطلق ناظر المدرسة الانجليزى النار من مسدسه على الطلبة فأحرق الطلبة سيارته التى كانت تنتظر الى جوار المدرسة واتجهوا من كوبرى الملك الصالح الى كوبرى عباس فى محاولة للوصول الى حرم الجامعة واشتبكوا مع البوليس وقتل منهم اثنان ، وكان يوما عصيبا بالنسبة لجمال اضطر فيه الى أن يختفى فى منزل سيدة كريمة هو واثنان من الطلبة عندما حاصر البوليس المنطقة .

وفى شارع الفلكى تجمع المتظاهرون من الطلبة وأبناء الشعب فى يوم من أيام عام ١٩٣٦ متجهين الى بيت الأمة ، وهناك التحم الجميع مع البوليس وأصيب « جمال » بجرح بالغ فى جبهته ، ونشرت جريدة « الجهاد » اسمه ضمن جرحى المظاهرة ، وأجبره والده على السفر الى المحلة الكبرى حيث كان عمه خليل يعمل هناك بوزارة الأوقاف لكى يبعده عن مركز الاضطرابات فى القاهرة . وحين عاد « جمال » من هذا المنفى المؤقت رفض ناظر المدرسة السماح له بالعودة الى فصله ، وأضرب الطلبة وأصروا على ضرورة عودة جمال، بل وأجبروا ناظر المدرسة على أن يذهب بنفسه بعربة « حنطور » لكى يحضر معه « جمال » من منزله الى المدرسة .

في هذه الأيام كتب جمال قصته التى لم يتمها « فى سبيل الحرية » وحصل على البكالوريا ، ووقعت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا وبدأ « جمال » يفكر فى الالتحاق بالكلية الحربية ولكن طلبه رفض ومن ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة «فؤاد» ولكنه لم يتم عامه الأول فيها ، كان يصر على أن يلتحق بالكلية الحربية وفى جرأة طلب السماح له بمقابلة وكيل وزارة الحربية وقال له أنه لا يحمل توصية من أحد الباشوات أو البكوات واعترف بأن له ملفـــا فى البوليس وبأنه كان ينظم المظاهرات ويشترك فيها ولكنه مع ذلك يريد أن يصبح ضابطا بالجيش ، وأعجب وكيل الوزارة بصراحته ، ومن بين أربعين متقدما اختيروا من بين أربعمائة ، كان « جمـــال » واحدا منهم • ويومها تنفس والده الصعداء وقال لعمه خليل «الجيش وحده هو الذى سيصلحه » •

وأصبح « جمال » ضابطا بالجيش ضمن أول دفعـــة « من الضباط الجدد » بعد معاهدة ١٩٣٦ التى قيل لها يوم التخرج أن مهمتها الأولى أن تجعل من الجيش أكثر من مجرد قوة بوليسية من الدرجة الثانية •

وانضم الملازم الثانى جمال عبد الناصر أو « جيمى » كما كانوا يدعونه فى الكلية الحربية بالكتيبة الخامسة التى كانت تعسكر فى منقباد ، وظل ست سنوات يعمل فى جيش قيادته الفعلية انجليزية، وكان الضباط الانجليز فى صورتهم التى رآها فى منقباد أسوأ دعاية لبلادهم فى مصر كانوا ينظرون الى المصريين كما لو كانوا من جنس أدنى من جنسهم ، يصدرون الأوامر ويفرضـــون العقوبات الظالمة • وكان معظم الضباط المصريين الكبار كسالى يقضون معظم وقتهم فى الأكل والشرب ولعب القمار وتدخين المخدرات ويشاركون فى أشكال عديدة من الظلم الفساد ، ذوى أكراش ضخمة ويخضعون

فى خنوع لضباط البعثة العسكرية البريطانية ، لا يحترمون أرديتهم العسكرية ، وينفقون أموال الجيش فى طعامهم وشرابهم • ومضى الضابط الصغير الملتهب الحماس يبذر النقد الصريح لكبار الضباط بين ضباط وجنود منقباد ، وكان الضباط الصغار يجتمعون كثيرا حول خيامهم يتذكرون حوادث دنشـواى وحوادث القمع الوحشى الذى كانت تمارسه السلطات البريطانية بين أبنـــاء الشعب فى مختلف مدن مصر والوضع المزرى فى بلادهم التى لازالت محتلة رغم معاهدة الشرف والاستقلال !! وكان « جمال » يسمع أكثر مما يتكلم، ثم يعبر عن رأيه فى صراحة • وهناك فى منقباد عرف بعض رفاقه فى الثورة فيما بعد ، وزار قرية بنى مر لأول مرة فى حياته قبل أن ينتقل فى سنة ١٩٣٦ الى الاسكندرية •

وقامت الحرب ، وسقطت فرنسا تحت أقدام هتلر ، واندحر البريطانيون فى دنكرك ، ونقل « جمـــال » الى الخرطوم ثم ما لبث أن نقل فى نفس السنة الى القاهرة فى الأيام التى طلب فيهـــا تشرشل أن تنسحب القوات المصرية على الحدود الغربية لمصر من مواقعها عندما كان « جرازيانى » يتقدم داخل الصحراء الغربية فى طريقه الى مصر وكان الطلب مهينـــا لهؤلاء الرفاق من الضباط الصغار الملتهبين بالحماس والوطنية الذين التقوا بالقاهرة ، ولــكن ما لبثت الأحداث أن فرقت بينهم • وتطورت أحداث الحرب وفى ســـنة ١٩٤٢ حاصرت الدبابات الانجليزية قصر عابدين لتحمل «مصطفى النحاس» الى كرسى رئاسة الوزارة وكانت هذه اهانة أخرى بالغة وجهت الى الضباط الشبان الذين كانت تحزنهم وتحز فى نفوسهم الأوضاع السياسية فى البلاد ، ولم يكن شـعورهم هذا بالاهانة راجعا الى حبهم للملك ولكنه كان على أية حال فى هذه الأيام رمزا للبلاد بصق عليه الانجليز فى غير ما اكتراث • واجتمع يومها

الضباط المتحمسون فى نادى الضباط يتدارسون الموقف وبينمـــا تقدم بعضهم الى المســـئولين يعرضون خدماتهم ، وبدأ آخرون يتحدثون عن الديناميت والاغتيال ، كان « جمـــال عبد الناصر » يفكر فى هدوء ، ويدبر لثورة مقبلة ، وبدا يكون تنظيم الضـــباط الأحرار ٠

ومرت سنوات ، وتتابعت الأحداث ٠

ازداد التنظيم قوة فى حرب فلسطين وخرج « جمال » بعد هذه الحرب وهو يحترق بالغيظ والالم للفساد الذى يستشترى فى الجيش والبلاد ٠ ثم كان حريق القاهرة وما تلا ذلك من اضطراب شمل البلاد من أقصاها الى أقصاها ٠ حتى كانت ثورة الشعب ممثلة فى جيشه فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ٠

***

ما الذى كان يريده « جمال عبد الناصر » من ثورته ؟ ٠٠

هل كان مجرد طرد الملك العابث أقصى أمنيانه ؟!

هل كان تطهير الجيش والبلاد من المفسدين فيهما الحد الذى تقف عنده ثورته ؟

ذلك ما لا يمكن أن يقبله منطق الثائر الذى عاش آلام بلاده وآمالها وهيأته الأقدار لكى يحررها ويجعلها خالصـة لأبنائهـــا المصريين لأول مرة منذ عدة قرون مضت ٠ ان الملك لم يكن الا أداة فى يد الانجليز ، وكان لابد من أن يتجه تفكير الثائر الى أن يترك الغاصب أرض بلاده فهو لن يستطيع أن يحقق لبلاده شيئا ، بينما هناك أكثر من ثمانين ألفا من جنود الاحتلال تصر على البقاء فى بقعة من أرض الوطن ٠ فسوف تظل هذه الثمانون ألفا من الجنود عقبـة

فى سبيل تصحيح الأوضاع والسير بالبلاد الى مستقبل أفضل للملايين • « وبدأ جمال يدرس الخطط لبناء مصر الثورة •• » وبعد ثلاثة أشهر فقط من بدء ثورته أعلنها مدوية صريحة « سوف نلقى القنابل اليدوية فى الليل وسوف يقتل الجنود البريطانيون فى الشوارع ما لم تنته سنوات الاحتلال السبعون وما لم يجل المحتلون عن بلادنا الحبيبة » •

وظل اصراره على جلاء القوات البريطانية قائما حتى سنة ١٩٥٦ ولم يكف لحظة واحدة عن بث الرعب فى قلوب أفرادها • وشن حربا نفسية قاسية عليهم حتى تحقق الجلاء فى يوم أغر من نفس هذا العام • ويوم هبطت به الطائرة الى بور سعيد « كان المصريون يحتفلون بنهاية الاستعمار فى بلادهم بعد ثلاثة وعشرين قرنا خرج فيها الحكم من أيدى أبناء مصر • كانوا فى ذلك اليوم يشهدون العالم كله كيف يكون شعورهم عندما يغادر آخر جندى من جنود الاحتلال البريطانى أرض الوطن » • وفتح باب الطائرة وظهر على قمة سلمها رجل فارع الطول عريض المنكبين يرتدى حلة عسكرية ذو شارب مشذب وشعر أسود مجعد قصيره على جبهته أثر جرح هلالى الشكل ، يبتسم ويلوح بيده اليمنى لجماهير الشعب التى احتشدت لاستقباله وهى تهتف من الأعماق « عاش جمال عبد الناصر » •

وفى مبنى البحرية أمسك عبد الناصر بالعلم « المصرى » بين يديه ، وقبله ، ورفعه فى بطء وجلال على ساريته ، وهتفت الجماهير التى احتشدت فى عشرات الألوف هتافا يصم الآذان فرحة بالحرية الجديدة التى كسبها جمال من أجلهم • « وعندما رفع يده قليلا يرجو من الجماهير أن تهدأ قليلا حتى يستطيع التحدث اليها ارتفعت

هتافاتها أكثر وأكثر ولم يكن بمقدوره أن يفعل شيئا ســـوى أن يبتسم وينتظر حتى يهدأ حماسها ٠٠ »

« وفى هذه اللحظات من الانتظـــار مر بخـاطره شريط من الذكريات ٠٠ منذ ثلاثة أعوام فقط كان ضابطا بالجيش ، وهو اليوم قائد ثورة خلصت بلاده من ملك كسول ونظام فاســـد ونجحت الثورة دون ما اراقة دماء ، واستطاع أن يفى بوعدوه للشعب وأن يخلص بلاده من آخر « أثر للاستعمار الأجنبى ، وأصبحت مصر فى وضع لم تعهده أبدا من قبل فى عصرها الحديث ، فلم يكن الأمر مجرد طرد غاصب أجنبى من البلاد ، ولكن هذه البلاد نفسها أصبحت مستقلة استقلالا تاما وعلى درجة من القوة مكنتها من أن تذل أولئك الذين أذلوها من قبل ، وتسقيهم من نفس الكأس التى سقوها منه زمنا طويلا ، وأصبحت تحت قيادته تنتهج سياسة ناجحة فى المجال الدولى هى سياسة الحياد الايجابى ، واســـتطاعت أن تزود جيشها بأحدث الأسلحة ٠ آلاف الأطنان من الغواصات والدبابات والطائرات والمدفعية الثقيلة وبدأت تعقد الصفقات التجارية مع أكثر من دولة من دول العالم المنحازة وغير المنحازة وبدأ الخبراء والفنيون من جميع أنحاء الدنيا يفدون الى مصر ليساعدوها فى اللحاق بركب القرن العشرين وبدأت تستقبل مزيدا من الـــكتب والفرق المسرحيـــة والأوبرات وفرق الباليه والفرق الرياضية والمحاضرين والادباء ، وأصبح أبناؤها على أبواب اكتفاء ذاتى يكفل لهم بمـــا يصنعونه بأيديهم معظم ما يحتاجون اليه فى معيشتهم ، وهو أمر كفيل بأن يبعث فى صدورهم الزهو والفرحة ٠ كان جمال يفكر فى هذا كله وهو يرفع يده مرة ثانية ، ليبدأ حديثه مع الجماهير أبناء الشــعب الذين من أجلهم قام بثورته » ٠

فلندع الأحداث الكثيرة التى مر بها « جمـــال عبد الناصر » ومرت بها أمته العربية « الى مرة أخرى ولنزر مع « روبرت ســـان جون » بيت الرئيس فى منشية البكرى لنرى كيف رأى قائد القومية العربية ورائدها المظفر فى حياته اليومية • فالحديث هنـــا ممتع والصورة التى يرسمها كاتبها صورة أخاذة تكشف البســـاطة والتواضع اللذين كانت تتسم بهما حيـــاة الرجل الزعيم والزوج والأب •• الراحل •

« منذ أن بدأ جمال عبد الناصر يدبر ثورته ، ثورة الشعب• شغلته رسالته التى هيأتها له الأقدار من أن يستمتع بالحيـــاة كما تستمتع بها أية أسرة متوسطة من الأسر المصرية فى القـــاهرة أو غيرها •• بعد سنوات قليلة من بدء الثورة حل الأسقف مكاريوس ضيفا على الحكومة المصرية وأقيمت له حفلة استقبال فى حديقـــة السطح بفندق سمير أميس وعندما وصل جمال عبد الناصر الى هناك صاح فى دهشة : «لماذا لم يخبرنى أحدكم عن هذا المكان الجميل ؟» •

« منزله فى منشية البكرى هو نفسه الذى كان يسكن فيه يوم كان ضابطا بالجيش قبل الثـــورة تم توسعه مرتين (لأنه أصبح والدا لخمسة أطفال) ولأنه أصبح المكان المفضل له لاستقبال زواره الرسميين ، يقف أمام المنزل من الخارج ستة من الجنود وفى الداخل سكرتيران بملابسهما المدنية يقومان بعملهما عندما يكون الرئيس فى بيته ، وللبيت حديقة متواضـعة ، والى جواره مبنى لمـــكتبة الرئيس ، وخلفه صف من الأشجار على طرف الحديقة يحلو للرئيس فى أمسيات الصيف أن يجلس هناك ليتابع عمله ـ وفى البيت « صالون » طوله عشرون قدما تقريبا به مدفأة عليها صور داخل براويز فضية للرئيس شكرى القوتلى والرئيس سوكارنو والرئيس

نهرو والامبراطور هيلاسلاسى والرئيس راجندرا براساد والرئيس تيتو ، وشواين لاى ، وروموولوبيتانكورت ، وهناك صورة أخرى كبيرة للرئيس كوامى نكروما أكبر من أن توضع على حافة المدفأة الضيقة • فى هــذا الصالون يستقبل الرئيس ضـــيوفه الرسميين والسفراء والوزراء والمراسلين والأجانب • وبالصالون نافذتان تطلان على شرفة بها « طاولة بنج بونج » وضع عليها أحد أبنائه الصغار قطارا كهربائيا صغيرا بينما استندت دراجتان صغيرتان الى جانب منهما • وفى مواجهة هذا الصالون يقع مكتب الرئيس الذى لا يسمح لأحد من أبنائه أو أفراد عائلته أو ضيوفه بالدخول اليه • وهنـاك يجلس الرئيس عندما يبحث أمرا مع أحد المسئولين فى حكومته » •

« ويستيقظ الرئيس عادة فى السابعة صباحا ويتناول افطاره المكون من الجبن الأبيض والخبز واللبن (وطبق الفول المدمس) وهو يقضى فترة طويلة فى تناول افطاره لأنه ينتهز فرصة الافطـــار فى مطالعة جرائد الصباح ثم يتجه بعد ذلك الى مكتبه ليراجع تقارير وزرائه وسفرائه • وعندما يتحدث فى التليفون يرسم فى مفكرة أمامه أشكالا مختلفة بقلمه بعضها يتكرر كثيرا منذ سنوات • وفى مكتبه يقدم له سكرتيروه مختارات من أكثر من ثلاثة آلاف خطـاب تصل اليه يوميا من جميع أنحاء العـــالم بعضـــها يطلب ردا على استفسارات معينة وبعضها يطلب صورة موقعة بخط يده وبعضـها الآخر يحمل موضوعات طريفة ، من ذلك ان احـدى المدرسات فى مدرسة بالصعيد أرسلت اليه فى سنة ١٩٥٩ خطابا تشكو فيـــه ناظرة المدرسة لأنها تضطهدها لمجرد أن أحد أقربائهـــا ـ أقرباء المدرسة ـ رفض الزواج بالناظرة التى كانت تريد الزواج منه . وهى تطلب حلا لمشكلتها !! • والرئيس يؤشر عادة على كل خطاب

يعرض عليه بالرد المناسب وكثيرا ما يكتب الرد كاملا بنفسه لكي يكتبه سكرتيروه ويبعثوا به الى صاحب الخطاب وهو لا يملى مطلقا ما يريد كتابته وفى الظهيرة يتناول الرئيس طعام الغداء المكون عادة من الخضروات والجبن ـ وقليلا ما يأكل الرئيس اللحوم ـ وربما يجيء الأطفال من مدارسهم فى هذه الفترة ليحظوا بلقاء سريع مع والدهم ثم ينصرفوا الى لعبهم أو استذكارهم ٠

ويقضى الرئيس عادة ساعتين فى القراءة بعد الغذاء ثم ينام حتى الخامسة لكى يبدأ عمله الحقيقي طيلة ثمانى أو تسع ساعات كاملة قلما يرى فيها أولاده حتى صباح اليوم التالى ٠

والرئيس مضيف كريم ، وهو لا يسمح للصحفيين أو الزائرين الرسميين بتوجيه الأسئلة الحرجة فحسب ؛ بل أنه يشجعهم على ذلك « بينما يميل هو قليلا الى الأمام ويستمع الى ما يقولون فى اهتمام » ٠

وكان الرئيس يمارس الرياضة ، ولكن أعباءه لم تمكنه من متابعة ممارستها بصورة منتظمة ٠ والشطرنج لعبته المفضلة ، وهو يعلم أولاده هذه اللعبة ٠ وهو يحب مشاهدة الأفلام السينمائية ، وله ذوقه الرائع فى اختيار ربطة العنق ؛ وهو يفضل تلك التى تحتوى على خطوط عريضة مائلة ، ويفضل اللونين الأزرق والرمادى ورغم أنه لايرى أبناءه كما يراهم أى والد آخر ، فهو والد من الطراز الأول ، فخور بهم ، وليست لديه فكرة خاصة عن مستقبلهم الذى يترك لهم حرية رسمه ، فهو يسمح لأولاده باختيار الطريق الذى يسلكونه ، واحد من أبنائه يفكر فى أن يصبح بحارا والآخر يريد أن يصبح ضابطا فى البحرية ٠

ولناصر هواية موسيقية ، فهو يحب الموسيقى ويحب بالذات موسيقى «رحمانينوف» و «شوبان» ، ويحب صــــوت «أم كلثوم» ويحرص على سماع حفلاتها الشهرية ، ويعجبه من الكتاب الأمريكيين «مارك توين ، ديل كارنيجى» فى بعض كتاباته • ويضحك كثيرا من النكات حتى لو كانت هذه النكات تمسه هو شخصيا • وهو يتقبل هجوم الصحافة الغربية الشخصية عليه فى تعليقات طريفة• نشرت احدى الصحف الانجليزية يوما صورة سيدة بريطانية قالت انها خطيبة ابن جمــــال عبد النــــاصر ويوم سأله أحد المراسلين البريطانيين عما اذا كان هذا الخبر العجيب قد أغضـــبه ؛ ضحك « جمال عبد الناصر » وقال « أبدا لقد نظرت طويلا الى صورة هذه السيدة الصغيرة وحسدت ابنى خالد عليها » ! وكان عمر خالد فى ذلك الوقت ست سنوات •

وناصر يحب القراءة كثيرا ويعشق الأدب ، وقد قال يوما لأحد الأدباء « أننى أحسدكم أكثر مما تتصورون • عندى خمسة وعشرون مفكرة مليئة بانطباعاتى عما سمعت وقرأت أود لو اتيحت لى فرصة شهر واحد اقضــــيه فى الــكتابة فقط » • والرئيس يعجب كثيرا بمصطفى كامل ولنكولن وواشنطن وغاندى ويعتبرهم من بين أعظم رجال العالم •

« هذا هو جمال عبد الناصر الذى يحب الشعب ويتطلع اليه حين يخاطبه أكثر مما يستمع اليه لأنه فى نظرهم المرآة التى يرون فيها أنفسهم • الرجل الذى ترتعد له فرائص الطامعين الأجانب • المثل الحى لحياتهم الجديدة ولبلادهم التى كثيرا ما خضعت للدخلاء ، الأمل الحلو لملايين البشر من المحيط الى الخليج » •

« هذا هو جمال بالنسبة لشعبه • جمال القائد ، والرجل ، والوالد » •

ثم يشرح الكاتب الأمريكي بعد ذلك قصة السياسة الخارجية لجمال عبد الناصر منذ بداية الثورة كيف كافح حلف بغداد وكيف قاوم الأحلاف فى منطقة الشرق الأوسط وكيف حطم حصار السلاح الذى فرضه الغرب على « مصر » ٠

« والدور الذى قام به جمال عبد الناصر فى بلغراد ؛ والدور الذى قام به جمال عبد الناصر فى التمهيد لهذا المؤتمر والدعوة له، لم يكن عملا مفاجئا قام به عبد الناصر ، وانما كان خطوة فى طريق طويل بدأه جمال عبد الناصر منذ قيام ثورة ٢٣ يونيو ١٩٥٢ » ٠

هكذا يقول الكاتب الأمريكي روبرت سان جون فى كتابه « الرئيس » ٠

كافح جمال طويلا من أجل ارساء قواعد حكم الشعب فى « مصر » واستطاع فى قوة وحزم أن يقضى على أكثر من مؤامرة فى الداخل كانت تهدف الى القضاء على الثورة أو استقلالها أو فرض الوصاية عليها ، وقضى على الملكية الفاسدة ، وأنهى حكم الأسرة المالكة المستبدة ، وأعلنت مصر جمهورية يحكمها أبناؤها لأول مرة منذ مئات السنين ٠ سدد أول طعنة الى صدر الاقطاع وزع الأرض على الفلاحين ٠ وأصبح الأجراء ملاكا للأرض التى رووها بعرقهم ودمائهم لكى تذهب الى حفنة من الاقطاعيين الذين كانت ترتبط مصالحهم بالقصر والاستعمار ، وبذلك مهد الأرض لحكم شعبى سليم يستند الى القاعدة الضخمة : الملايين من أبناء الشعب ٠ كان فى أول الطريق نحو بناء أمة من جديد ، بنائها مما يشبه العدم ٠ وكان لابد من أن تجلو قوات الاستعمار التى كانت لا تزال تجثم على صدور أبناء الشعب فى بقعة من أرض الوطن ٠

ومن أول شهور الثورة صرح جمال عبد الناصر باسم الملايين من أبناء شعبه : « على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل

والا فليقاتل حتى الموت دفاعا عن بقائه » . وحين تلكأ « الاستعمار » بدأ جمال يرسم خطة يجعل بها اقامته شيئا مستحيلا .. حرب نفسية على نطاق واسع ، فدائيون يتسللون الى معسكرات الانجليز فى منطقة القناة يقومون بأعمال النسف والتخريب ؛ جنود وضباط يختفون دون أن يعرف أحد مصيرهم . وكان أن وضع الاستعمار عصاه على كاهله ورحل ، ويومها تحقق حلم الملايين الذين أوجعتهم ثمانون سنة من الاحتلال البريطانى ، وانفتح الباب على مصراعيه فى الطريق الطويل : طريق الأمل لجمال عبد الناصر كى « يقود شعبه الى الأمل المشرق والعمل الدائب لبناء الأمة الجديدة فى الداخل والخارج » .

ثم بدأت المتاعب ، أو قل زادت المتاعب ، فقد بدأت منذ أول يوم أعلن فيه جمال عزمه على تخليص بلاده من قوات الاحتلال بدأت المتاعب التى خلقتها اسرائيل بوحى من خالقيها وصانعيها ، بوحى من قوى الاستعمار العالمى الذى لم يكن ترضيه أن تتحرر « مصر » فى منطقة كانت حتى ذلك الحين موطنا لنفوذه .

فى سنة ١٩٥٤ بدات الصهيونية تتحرك . وحاولت اسرائيل أن تمنح الاستعمار الفرصة والذريعة للتدخل . وقام اليهود بالقاء القنابل والمتفجرات على مكاتب الاستعلامات الأمريكية ودور السينما واستطاعت السلطات المصرية أن تضع يدها على المؤامرة الصهيونية ، وكانت ضربة قاصمة لعملاء اسرائيل ولاسرائيل نفسها واتضحت آثارها الخطيرة فيما بعد فى فضيحة «لافون» وعملية الامن، ومن ثم بدأت اسرائيل عمليات تحرش واسعة النطاق على الحدود « وكان الرد عليها أن اقتحم الفدائيون المصريون والفلسطينيون أرض اسرائيل نفسها ، وكانت النتائج مروعة بالنسبة لاسرائيل فى خلال هذه الفترة فقتل أكثر من (٢٥٧) اسرائيليا على أيدى الفدائيين بلغت خسارة اسرائيل فى الممتلكات نتيجة هذه الحملة الانتقامية

مئات الملايين من الدولارات ونسفت الطرق والكبارى وبثت فيها الألغام » ٠

كان واضحا اذن أن اسرائيل تحاول أن تثبت وجودها أمام هذه القوة الجديدة التى قامت فى « مصر » والتى أعلنت بلسان قائدها « ان علينا أن نكون على استعداد للمعركة الكبرى من أجل فلسطين » ٠ كانت اسرائيل تتزود بالسلاح كيفما تشاء بينما كنا نحن نبحث عن السلاح فى كل مكان ٠

وفى يوم الاثنين ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ حدث تطور جديد وخطير ٠ كان يوما عصيبا بالنسبة لجمال عبد الناصر وكان نقطة تغيير حاسمة فى الموقف كله ٠ كان جمال قد أوى الى فراشه مبكرا بعد يوم من العمل المرهق ٠٠ وبعد منتصف الليل بقليل دق جرس التليفون الى جوار سريره وقال المتحدث « لدى أخبار سيئة » ، واستمهله جمال قليلا حتى يحضرورقة وقلما ويدون هذه الأخبار : « قام اليهود بهجوم مفاجىء على قطاع غزة وتوغلوا مسافة ميلين داخل القطاع ونسفوا محطة مياه شمال غزة ومست احدى سيارتنا لغما ، والتقارير الأولى تقول أن سبعة وثلاثين قتلوا وأن ثلاثين أو أكثر قد جرحوا » ٠٠ ولم يعد جمال الى فراشه تلك الليلة ٠

ثم جاءت المتاعب من ناحية أخرى ، ففى سنة ١٩٥٥ وقع رؤساء الوزارتين التركى والعراقى حلفا أسموه حلف بغداد انضمت اليه فيما بعد الباكستان وايران وبريطانيا ، بينما منحت الولايات المتحدة هذا الحلف تأييدها المعنوى ٠ وكان الغرب يحاول أن يضم الى هذا الحلف دولا عربية أخرى ، وكان هذا كثيرا بالنسبة لجمال « الذى علمته أحداث التاريخ أن الأحلاف والاتفاقيات والمعاهدات لم تكن أكثر من شراك توقع فيها القوى العظمى دولا صغيرة فى حبائلها » وكان هو ضد المبدأ ٠ فقد رأى فى حلف بغداد وسيلة

استعمارية لابقاء الدول العربية تحت سيطرة الغرب : « ضـــعيفة مقسمة » ٠

كان الاستعمار اذن قد بدأ يرسم خططه الجديدة لمواجهة اليوم الذى ستضطر فيه قواته الى الرحيل عن « مصر » وكان يعد أدواته فى هذه الخطة ٠٠ اسرائيل ٠٠ وحلف بغداد ٠

أما بالنسبة لاسرائيل فقد كان الموقف يحتاج الى عمل سريع اسرائيل تحصل من الغرب على ما تريد من أسلحة وعتاد تستعين به فى تحرشاتها واعتداءاتها على حدود الدول العربية ومصر تطلب السلاح من الغرب ٠ فتتلكأ دوله ٠٠ وتماطل ٠٠ ثم ترفض ٠ وكان الرد حاسما جديرا بجمال عبد الناصر ٠

فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ ٠٠ وفى معرض القوات المســـلحة بالجزيرة أعلنها جمال عبد الناصر « قنبلة أصـــابت الاستعمار فى مقتل » ٠٠ « لقد تلقينا عرضـــا من تشيكوسليوفاكيا تبدى فيه استعدادها لمدنا بكل ما يحتاج اليه جيشنا من أسلحة على أســاس تجارى خالص ٠٠ وقد عقدنا اتفاقا بهذا الصدد مع تشيكوسلوفاكيا منذ أسبوعين » ٠٠ وساعتها اندفع المراسلون الصحفيون ، ومراسلو وكالات الأنباء الى التليفـــونات ليبرقوا الخبر الخطير ٠٠ كان الرد حاسما على الكتلة الاستعمارية التى كانت تتذرع بحجة توازن القوى ٠٠ أمريكا مثلا رفضت مدنا بالسلاح كوسيلة للضغط رغم البعثات العسكرية التى أرسلت الى « البنتاجون » للحصول على الأسلحة ، فرنسا كانت تتخذ من منع السلاح وسيلة للضغط على « مصر » حتى تتخلى عن تأييدها لكفاح الشعوب العربيـــــة فى شمال أفريقيا ، وانجلترا كانت ترفض بطبيعة الحال أن تمدنا بالسلاح لأننا هاجمنا حلف بغداد الذى رسمت خطوطه وأهدافه فى مواجهة القوة العربية النامية فى القاهرة ٠

ومن ثم كانت صفقة الأسلحة التشيكية لطمة عنيفة ذهلت لها الدوائر الاستعمارية . كانت تحطيما لاحتكار السلاح من هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم الأخرى .. كانت عملا جريئا لم يتصد أحد لمثله من قبل .. وبدأ الاستعمار يشن على مصر وقائدها حملة دعاية واسعة النطاق « جمال عبد الناصر أصبح شيوعيا .. » !

ويرد جمال على هذه الحملة الهستيرية فى حديث أدلى به « لسيروس سلز برجر » مراسل « نيويورك تايمز » فيقول : « لقد قرأت كثيرا عن الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية والفاشية وثورتنا لا تندرج بالضبط تحت واحد من هذه العناوين . نحن نعمل لكى نواجه احتياجات شعبنا ومطالبه .. ولسنا مستعدين لأن ننقل أيديولوجية أحد غيرنا » .

« وتحركت الولايات المتحدة ، وطار (جورج آلان) الى القاهرة فى أول طائرة ممكنة ، بينما كانت الولايات المتحدة تخمن مقدار صفقة الأسلحة : مائتان أو ثلاثمائة طائرة ميج ١٥ نفاثة مقاتلة .. خمسة وعشرون قاذفة قنابل .. ومائة أو مائتا دبابة من طراز ستالين .. ست غواصات وشحنة تلو أخرى من الأسلحة الأخرى. ووصل (جورج آلان) هو والسفير الأمريكى ليقابلا جمال عبد الناصر وظلا ينتظران أكثر من ساعة ونصف الساعة . والسبب يشرحه جمال عبد الناصر : « .. لقد جعلنا مستر جورج آلان ينتظر لأننا سمعنا أنه أحضر معه من اشنطن خطابا شديد اللهجة ، وأنه ينوى أن يخبط المائدة بقبضته ويعطينا محاضرة ؛ وقد جعلناه ينتظر حتى تهدأ أعصابه .. جعلناه ينتظر حتى اقتنع بألا يقدم لنا مذكرته التى جاء الينا من أجلها » ـ وهكذا كان جمال يتعامل مع كل من تسول له نفسه النيل من كرامتنا ـ « ومن أجل هذا أصبح جمال بطل العروبة فى كل بقعة من المحيط الى الخليج » .. « الناس فى البلاد العربية

يدفعون نقودهم التى ادخروها بصعوبة من أجل الحصول على نسخة من صوره ، فى عمان ، فى بيروت ، فى دمشق ، فى بغداد ، فى صحراء الجزيرة العربية ، فى خيام البدو · لقد كان رد الفعل قويا لدى هذه الشعوب العربية التى كانت تبحث عن الكرامة التى طالما تحدث عنها جمال عبد الناصر » ··

وبدأ عبد النـــاصر يعمل من أجل بلده فى عزم وتصميم · وكانت حجة الداخلين فى نطاق حلف بغداد أنهم يؤمنون أنفسهم بقوة الدول الغربية · وأسقط جمال هذه الحجة يوم قضى على احتكار السلاح ، ثم مضى يثبت للعالم أجمع وللشعوب المتطلعة الى حريتها كيف يمكن أن يبنى بلدا من جديد دون أن يخضع سياســة بلاده لسياسة بلد أجنبى · بدا يعقد الاتفاقيات التجارية والاقتصادية مع المانيا الشرقية وبولنده وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر وبلغاريا والصين والاتحاد السوفيتى · وبدأت الأمة كلها تساهم فى نفقــات تسليح جيشها · وبدأ كثير من زعماء العالم يقتفون أثره بعد أن حطم الأسطورة ، وقضى على التردد والخوف « حتى لقد أعلن (الأمير) فيصل ، أن السعودية قد تستورد أسلحة من الكتلة الشرقية !! وأعلن رئيس وزراء لبنان أن بلاده تود لو استبدلت بفاكهتها أسلحة تشيكية !! » ·

وبدأ مركز « مصر » الدولى يزداد قوة بفضل سياسة «ناصر» وفى نفس هذه المدة استقبل ناصر الرئيس اليوغوسلافى « تيتو » وزار الاثنان منطقة السد العالى وهناك أشار « ناصر » الى مكان السد قائلا للمارشال تيتو « هذا هو حلمى » ·

« لقد كان مصمما كل التصميم على بناء السد العــالى الذى سيفوق فى حجمه حجم الهرم الأكبر سبع عشرة مرة ، والذى سوف

يؤكد مكانة المواطن المصرى فى التاريخ طيلة خمسة آلاف سنة أخرى كما كان الأمر بالنسبة للهرم الأكبر من قبل » ٠

« وبدأ الغرب يحاول أن يثبت أنه ليس أقل من الكتلة الشرقية فأبدى استعداده للمساهمة فى بناء السد ٠ كما أعلن (يوجين بلاك) أن البنك الدولى مستعد لتقديم قرض قيمته مليون دولار فى هذا الصدد ٠ وفى هذه الفترة زار (سلوين لويد) مصر مرتين وأبدى استعداد بلاده لارسال أسلحة بريطانية كرد على صفقة الأسلحة الشرقية ٠ ولكنه ساوم فى محاولة لجر مصر الى حلف بغداد ٠ وكان من الطبيعى أن يرفض جمال عبد الناصر ٠ وفى مأدبة أقيمت لسلوين لويد فى (عابدين) بدأ الحديث عن قوة بريطانيا ومركزها فى الشرق الأوسط ٠ وقال سلوين لويد فى غرور : « تذكر انه لا يزال لدينا جلوب باشا فى الأردن ٠٠ وفى هدوء قال جمال : « تقصد (كان) لديكم جلوب باشا ! هل لى أن أبلغك بأن جلوب باشا قد طرد من منصبه ٠ بالضبط قبل أن تبدأ تناول الطعام » ٠٠

وتوالت ضرباته على الغرب الذى كان يعمل على الاستحواذ على منطقة الشرق الأوسط ، تزودت بلاده بمفاعل ذرى من الأتحاد السوفيتى ، وأعلن هو أن الاتحاد السوفيتى أبدى استعداده للتمويل فى بناء السد العالى ٠ ثم اعترفت بلاده بالصين الشعبية وكانت الضربة الأخيرة من القوة بحيث أفقدت الغرب صوابه « وحدث ما حدث من سحب امريكا وبريطانيا والبنك الدولى عروضهما لتمويل السد العالى ٠ وكان لابد أن يرد جمال عبد الناصر ، وكان الرد فى هذه المرة شيئا لا يخطر ببال أحد أعلن تأميم قناة السويس » ثم كان ما تلى ذلك من ثورة هستيرية فى دوائر الاستعمار ــ على جمال عبد الناصر ــ وجمال عبد الناصر شخصيا ــ (أيدن) يقول : « ان معركتنا ليست مع مصر أو العرب ، ولكنها مع جمال عبد الناصر » ! ٠ (موليه) يتهجم عليه فى وقاحة ؛ الجمعية الوطنية

الفرنسية تتهم عمله بأنه تهديد للسلام ٠٠ الحكومة البريطانية تستدعى الاحتياطى وتستدعى البريطانيين من مصر ٠٠ مؤتمر لندن ينعقد وجمال عبد الناصر يهاجمه ويصفه بأنه : « ليس الا استعمارا مشتركا » ٠

اقتراحات بتدويل القناة يرفضها جمال عبد الناصر ٠٠ « منزيس » رئيس وزراء استراليا يحضر الى القاهرة ويقابل جمال عبد الناصر ويتصرف فى قحة ويرده جمال الى صوابه ويصفه بأنه : « لم يكن يتحدث كرئيس وزراء استرالى ، ولكنه كان يتحدث كبغل استرالى » ! ٠

وتبدأ مؤامرة الاستعمار تبدأ أولا بحرب نفسية واسعة النطاق ، صحفهم تهاجم القاهرة وجمال عبد الناصر ، اذاعاتهم تبث اشارات مضحكة مثل ٠٠« على يطلب من صلاح أن يوقظ النائمين السبعة فى الكهف السحرى » ٠٠ « هنالك أربعون جملا فى قافلة تتقدم فى هدوء نحو الواحة » ٠٠ « القمر يسطع على صفحة مياه النيل » ٠٠ الخ ، هذه الاشارات التى كانت الدوائر الاستعمارية تتوقع بعدها أن تنهار معنويات المصريين ، فينهضون ضد عبدالناصر « ٠٠٠ وكان الرد من القاهرة أن أعلنت التعبئة » ٠

أما أحداث المعركة ٠٠ معركة سيناء ، ثم معركة القناة وبور سعيد فليس هناك ما يدعو الى اعادة تفاصيلها ٠ ولكن المعركة التى فرضت على « مصر » جعلت شعب مصر بعد ذلك « على موعد مع القدر » ٠٠ فقد بدأت تتحقق « الدائرة الأولى » التى تحدث عنها جمال عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » ٠٠ الدائرة العربية ٠

وانتهت المعركة ٠ وبدأ « ناصر » حركة واسعة النطاق لتمصير كافة المنشآت والشركات والمؤسسات الاجنبية وأمر باخضاع المدارس الأجنبية للاشراف المصرى الكامل ، وخاض معركة أخرى مع « فراغ

أيزنهاور » ففسد المشروع قبل أن يرى الضوء · وكان الضغط الاقتصادى الذى واجهه من الغرب « ضارة نافعة » ، فقد مهد الطريق لأروع نهضة صناعية اقتصادية شهدها الشرق الأوسط · ثم قامت الجمهورية العربية المتحدة باتحاد سوريا ومصر ويومها قال جمال : « اليوم ونحن نتطلع الى المستقبل نحس بأنه سوف يكون مليئا بالقوة والكرامة » ·

وكانت ثورة العراق فى ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ ويومها كان جمال عبد الناصر فى زيارة ليوغوسلافيا ، وكان هو والمارشال تيتو فى جزيرة « بريونى » ·

فى صباح ١٤ يوليو كان كل من فى الجزيرة نائما عندما تلقى اليخت الذى أقل الرئيس الى هناك رسالة عاجلة الى « ناصر » : « لقد حدثت ثورة فى العراق » ؛ ولقد وصلت أنباء الثورة الى اليخت قبل أن يسمع بها العالم ، بل قبل أن يسمع بها الكثيرون فى العراق نفسه فقد أبلغ عبد السلام عارف نبأ الثورة الى برج مطار دمشق الذى أبلغها بدوره الى القاهرة · واستقر الرأى على أن يعود جمال الى القاهرة ونصحه الماريشال تيتو بألا يعود بطريق البحر وأن تكون عودته بالطائرة ، فقال جمال عبد الناصر : « أعتقد أن من الأفضل لدى أن ألتقى بالأسطول السادس » ·· وفى نفس اليوم أبخر اليخت «الحرية» فى حراسة المدمرات العربية واليوغوسلافية ، وجاءت الأنباء عن طريق الراديو بأن « ماكميلان » أمر بأن يكون ستة آلاف جندى بريطانى على استعداد للنزول فى الأردن وأن ايزنهاور جمع « مجلس الأمن الأمريكى » على وجه السرعة ، وأن ايران تعلن التعبئة العامة ، وأن وزير المعارف العراقى يعلن أن العراق سوف يسير جنبا الى جنب مع الجمهورية العربية المتحدة لتحرير الأمة العربية كلها · واقترب الأسطول السادس من شواطىء لبنان ثم أنزل آلافا من مشاة البحرية الأمريكية على هذه الشواطىء ، ثم أعلن عبد الناصر وهو لا يزال فى

عرض البحر والاسطول السادس قريب منه أن هذا العمل هو أكبر خطأ ترتكبه أمريكا فى منطقة الشرق الأوســـط وأنه « عملية غزو أخرى كعملية السويس » ٠

وفى الساعة السابعة من مساء اليوم التالى تلقى اليخت رسالة خاصة من « الماريشال تيتو » يرجو فيها عبد الناصر أن يعود للتشاور معــه فى أقرب مينــاء يوغوسلافى ، كمــا تلقى ردا على برقيــة كان عبد الناصر قد بعث بها الى «خروشوف» ٠ ومن ثم قرر «عبد الناصر» أن يطير الى موسكو على الفور بعــد أن يصـــل الى ميناء « بولا » اليوغوسلافى ، وفى طريق العودة بعث « عبد الناصر » برسائل الى شواين لاى » ، « ونهرو » و « نكروما » وكثـــير من زعماء الكتلة الأفريقية الاسيوية ، ثم أعلن أن أى اعتداء على العراق سوف يعتبر اعتداء مباشرا على الجمهورية العربية المتحدة ، وأرســل الى القاهرة يخطرها بخطته لزيارة موسكو التى لا ينبغى أن يعرف أحد سرها ، ثم انتقل الى المدمرة « الناصر » التى أسرعت نحو ميناء « بولا » حيث قابله « تيتو » ، و « بوبوفيتش » ٠ وبعد العشــاء استقل طائرة وصلت به موسكو فى الثالثة من صباح اليوم التالى حيث كان فى استقباله « ميكويان » الذى قال له ان «خروشوف» سيكون عنده فى العاشرة صباحا ٠ وعندما جاء « خروشوف » تناقش مع عبد الناصر فى الموقف ، وأعلن أن الاتحــاد السوفيتى ســيواجه الموقف بكل احتمالاته ، ثم نصح « عبد الناصر » بأن يسلك فى عودته بالطائرة طريق القوقاز وايران والعراق فدمشق ٠

وفى دمشق التقى ناصر بعشرات الألوف من أبناء الجمهــورية العربية وهناك قال « فلنحمد الله على زحفنا المقدس يمضى من نصر الى نصر ٠ لن ترهبنا الأساطيل أو القنابل الذرية ، فنحن مستعدون لمواجهة كل احتمال » ٠٠ وفى اليوم التالى لوصوله الى دمشق وصل « عبد السلام عارف » نائب رئيس الوزراء بالعراق على رأس وفد

من أعضاء الوزارة وعقد اتفاقا بينهما يزيد من الروابط العسكرية والاقتصادية بين البلدين ، ثم عاد ناصر الى القاهرة ، وهناك أعلن أمام أكثر من ربع مليون مواطن احتشـدوا فى ميـدان الجمهورية ومخاطبا ضيوفه من الضباط والوزراء العراقيين الذين جلسوا الى جواره « أيها الأخوة ، لم تعد مدافع الاستعماريين هي أقوى المدافع فى العالم هل تذكرون ما قاله هيو جيتسكل فى مجلس العموم لأنتونى ايدن وقت العدوان على مصر ؟ لقد قال له : اذا كنت تتصور يا مستر ايدن ان العالم قد أصبح غابة فدعنى أذكرك بأننا لم نعد أقوى الوحوش فى هذه الغابة ٠٠ اننا مع شعب العراق » ٠ وانتهت الأزمة وخرجت القوات الاستعمارية من الشرق الأوسط كما جاءت وصدرت الصحف العربية وفى صدر صفحاتها الاولى « انتصرنا » ٠

وكان هذا انتصاراً آخر ، حققـه « ناصر » لأمته العربية ، وتوالت انتصارات الأمة العربيـة ٠ كون الأحرار الجزائريون أول حكومة لهم فى القاهرة ، وأضاف هـذا العمل مزيدا من الأهميـة للقاهرة التى أصبحت ملجأ للأحرار فى العالم أجمع ، ملجأ الأحرار من لحج وعمان والأردن والكاميرون الفرنسى وأوغنـده والصومال ونيجيريا وكينيا ، وكثير غيرها من البلدان كلهم يكافحون ولرءوسهم أثمان باهظة ٠

ومضى عبد الناصر يبنى بلده من جديد فى الداخل والخارج : زعماء العالم فى زيارات متتابعة للقاهرة ٠ الجمهورية العربية المتحدة رائدة فى مجال الحياد الايجابى وعدم الانحياز تساند حركات التحرر فى العالم أجمع وتقضى على أكثر من مؤامرة استعمارية ٠ وتسير فى طريق الديمقراطية الاشتراكية التعاونية ـ أيدلوجية جديدة صنعتها القاهرةـ فىسنة ١٩٥٩ وحدها زار القاهرة «أوتوجرو تفول» رئيس وزراء المانيا الشرقية «ورشيدكرامى» رئيس وزراء لبنان ،«وأمينتورى فانفانى » رئيس وزراء ايطاليا ، وكوامى نيكروما رئيس وزراء غانا ،

ومهراجا ميسور » ٠٠ووزير خارجية اسبانيا، ومستر «يوجين بلاك» مدير البنك الدولى ، و « داج همرشولد » ٠٠ وكثيرون غـــيرهم من زعماء العالم المرموقين فى هذه السنة والسنة التالية ٠

وتابعت القاهرة تقديم عونها الأدبى لأحرار العالم ، فأيدت ثورة « كاسترو » فى كوبا ، وجاء وزير خارجية بنما الى القاهرة ، ثم زار منطقة القناة ورأى بعينيه كيف استطاعت دولة صغـــيرة أن تؤمم مجرى مائياً عالمياً ٠

وفى داخل الجمهورية العربية المتحدة مضى جمال عبـد الناصر يؤكد ويفصل خطوط مجتمعه الجديد ــ المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى ــ لكى يحقق أهداف الأمة العربية ولتحقيق الخبز للجميع ٠ ليكون بداية الحرية للجميع ٠ وتكون الاتحاد القومى ، وأصبح من حق كل قرية أو منطقة انتخابية أن يكون لها ممثل لخمسمائة مواطن ٠ وأفرج عن المسجونين السياسيين الذين حكمت عليهم محاكم الثورة وردت اليهم حقوقهم السياسية وكان هذا دلالة على الثقة بمدى ماوصل اليه شعبه من وعى ٠ وأصبحت البلاد خالصة لأبنائها لأول مرة منذ قرون طويلة وزادت الادارة الناجحة لقناة السويس من سمعة البلاد الطيبة فى الخارج وبدا العمل الفعلى فى الســد العــالى يوم فجر عبد الناصر شحنة الديناميت فى الصخور ٠ وافتتح مشروع أول محطة للقوى الهيدروليكية فى البلاد ٠ وأصبح لا يمر يوم دون أن تحتفل البلاد بافتتاح مشروع صناعى جديد وأصبحت البلاد تضع كل ما تحتاج اليه من مصنوعات قطنية ، وبدأت سياسة تحســين الرقعة المنزرعة تنمو يوما بعد يوم ٠ وعلى هدى يديه ، بدأت أساليب الحيــاة القديمة تأخذ طريقها الى الزوال شيئا فشيئا ، ووصلت المياة النقية لأول مرة الى عدة مئات الألوف من الفلاحين ، وانخفضت نسبة الوفيات ، وبدأ عبد الناصر فى حزم ؛ يقضى على كل مظاهر الفساد٠

هذا هو ناصر ٠٠

هذا هو « ناصر » فى كتاب لكاتب أمريكى ٠٠ « ناصر » الذى تتحدث عنه الآن صحف العالم أجمع ، كما تعودت دائما أن تتحدث عنـــه ٠٠

ترى ٠٠ لو كان « روبرت سان جون » قد أخرج كتابه هـذا منذ بضع سنوات من التاريخ الذى أخرجه فيه ٠٠ أو لو أنه أخرج الآن كتابا آخر عن « ناصر » ٠٠ ترى ماذا كان يقول ؟

ماذا كان يقول عن « ناصر » بعد أن انتهى السد العالى وأصبح حقيقة رائعة ؟

ماذا كان يقول عن « ناصر » ٠٠ الذى أعلن الميثـــاق باســـم الشعب ؟ ماذا كان يقول عن ناصر ٠٠ الذى أقام الاتحاد الاشتراكى العربى ٠٠ والذى وضع أسس اشتراكية عربية حقق للجماهير فيها ما لا يمكن أن يوصف الا بأنه معجزة ٠٠؟

ماذا كان يقول عن « ناصر » بعد أروع الانجازات ٠٠ وأروع الانتصارات الوطنية والعربية والدولية خلال بضع السنوات القليلة التى مرت منذ أخرج كتابه هذا ؟ ٠٠

لعل « روبرت سان جون » ٠٠ يفكر الآن فى أن يفعل ذلك ، ولو فعل ٠٠ لوجد الكثير والكثير فى صفحة عبد الناصر الخالدة من كتاب هذه الأمة العربية ٠

الجيش المصرى فى السياسة

الكتاب الثانى

للكاتب الأمريكى
ب . ج .
فاتيكيوتيس



الجيش المصرى فى السياسة ..

يعتبر كتاب « الجيش المصرى فى السياسة » ، من أهم الكتب التى صدرت فى الخارج عن الثورة المصرية التى اندلعت فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولقد سلك كاتبه أسلوبا جديداً الى تحليل هذه الثورة .. فهو لم يدرسها كتاريخ ولم يركز على شخصياتها أو أهم الاحداث التى مرت بها كما فعل «ويلتون وين» فى كتابه « البحث عن الكرامة » ، او كما فعل « روبرت سان جون » فى كتابه « الرئيس » .. ، ولكنه ركز بحثه فى تفسير أسباب هذه الثورة وأسباب اضطرار الجيش الى ان يقلب نظام الحكم القديم من أساسه .. كما أفاض فى محاولة تفسير «الايديولوجية » * الجديدة التى نادى بها وتبناها « الضباط الاحرار » الذين

* يلاحظ ان الكتاب صدر قبل الميثاق وقرارات يوليو الاشتراكية ..

جاءوا من قلب هذا الشعب . من أبنائه الكادحين ، ومن ثم كانوا أكثر من رأتهم مصر من الحكام لصوقا بهذا الشعب ايمانا به .

والكاتب قد عنى كثيرا بتحليل كثير من الافكار التى بذرتها الثورة بين أبناء هذا الجيل ، واهتم كثيرا بالتحدث عن « النظام السياسى » الجديد الذى تسير عليه الثورة .. عن الاتحاد الاشتراكى ، عن فكرة العروبة التى اشعلت بها «الثورة» منطقة الشرق الاوسط على أساس عملى بعد أن كانت مجرد فكرة حالمة فى الرءوس .

ومؤلف الكتاب « فاتيكيو تيس » أستاذ مساعد بجامعة « انديانا » بالولايات المتحدة الامريكية . ومؤلف كتاب « نظرية الدولة عند الفاطميين الذى صدر سنة ١٩٥٧ .. والمحرر فى كثير من الموسوعات والصحف والمجلات متنقلا فى أرجاء الشرق الاوسط طيلة عشرين عاما منح خلالها منحة فى البحث الاجتماعى. وقد درس الكاتب منطقة الشرق الاوسط فترة طويلة قبل حصوله على الدكتوراه من جامعة « جون بكنز » .. وهو يقوم حاليا بدراسة شاملة عن « مصر الحديثة » .

« ليس من الصعب أن نفسر لماذا قامت الجيوش فى بلاد مثل مصر وسوريا والعراق بالاطاحة بالجماعات القديمة الحاكمة ، فقد طالما وجد هذا السؤال تفسيرات كثيرة منذ سنة ١٩٤٩ (ولكن الشيء الذى لم يتعرض له أحد بصورة واضحة .. هو دراسة (الجيش) فى منطقة الشرق الأوسط باعتباره جماعة سياسية متميزة » .

لقد قسم الاسلام العاملين فى ميدان الحكم الى قسمين رئيسين كبيرين : « أهل الكلام » ، « وأهل السيف » . ولطالما أثبتت بعض التنظيمات العسكرية من القوات النظامية أو المرتزقة وجودها الى جانب الطبقات الحاكمة من كل من الدولتين اعتمادا كثيرا على القواد العسكريين فى الحكم . ولقد اعتمدت الامبراطورية العثمانية التى كانت تفتقر الى التأييد الشعبى على جيش قوى يبسط سيطرتها على مستعمراتها الواسعة الممتدة من البلقان الى مصر ، ومن شمال أفريقيا الى المحيط الهندى .

وفى القرن العشرين بدأت دول الشرق الأوسط ـ على أساس شكل من أشكال الاستقلال ـ تبنى جيوشا باعتبار أن الجيش الوطنى القوى رمز للاستقلال والسيادة . وقد استخدمت الدول العربية ـ فى محاولاتها لبناء جيوش حديثة ـ الأساليب الغربية فى هذا الصدد ولكن أساليب الغرب وفنونه لم تطبق فى نفس الوقت بالنسبة لمختلف نواحى الحياة الاجتماعية الأخرى . ومن ثم فقد أصبح الجيش أكثر الأجهزة تقدما فى البلاد العربية . ليس هذا فحسب ، بل انه أصبح ذا دور خاص فى التطور السياسى فى هذه البلاد وأحس قواده وضباطه بأنهم أكثر الجماعات تنظيما وبأنهم أقدر على أن يكونوا فى طليعة الحركات الوطنية التى بدأت تبرز على السطح .

ويرجع تاريخ ارساء الأساس لجيش مصرى حديث الى عهد محمد على الضابط الألبانى الذى انقلب على حكم آل عثمان واستطاع

فى فترة حكمه التى امتـدت ثلاثا وأربعين سـنة أن ينشىء جيشا وأسطولا حديثين بمساعدة مستشارين من الأجانب · واستطاع أن يقوم بأعمال عسكرية ضخمة · ولقد كان من الطبيعى أن تخلق هذه التجربة العسكرية فى مصر تقاليد عسكرية واسعة لولا أن «المصرية» لم تتحقق تماما فى هذا الجيش حتى سنة ١٩٣٠ · والحق أنه منذ آخر عهد مصر بالأسر الفرعونية ، أصبحت الجيوش فيها بعيدة بعدا شاسعاً عن « المصرية » ، فالبطالسة والرومان والعرب * والأتراك جميعا ، كانوا يعتمدون فى جيوشـهم فى المحل الاول ، على جنود من غير المصريين الا فى حالات قليلة فى بعض فترات الحكم الاسلامى ·

وعندما أنشأ محمد على أول مدرسة حربية لتخريج الضباط سنة ١٨٢٠ فى (اسوان) تحت ادارة الكولونيل سيف « سليمان باشا الفرنساوى » كان قوامها خمسمائة ضابط اختارهم محمد على من مماليكه الخصوصيين بعيدا عن كل أثر لمصرى ، حيث وضع فى اعتباره امكان قيام المصريين بثورة ضـده اذا أتيحت لهم فرصـة الدخول الى صفوف جيش عصرى منظم ، كما أنه كان حريصا على ابقاء المصريين « فلاحين » فى الأرض حتى يضمن اليد العاملة التى تملأ خزانته · على أن التجربة فشلت بسبب عدم تعـود مماليـكه هؤلاء على النظام الذى تتطلبه الجيوش الحديثة ، فلم يجد بدأ من أن يتطلع الى المصريين · وفى سنة ١٨٢٣ دخل المصريون لأول مرة فى صفوف الجيش تحت قيادة الدفعة الاولى من المماليك الذين أخرجتهم مدرسة اسوان والذين أتيحت لهم بعض الدراسـات العسكرية الاضافية فى مدرسة (الخانكة) ·

---

* المؤلف هنا لم يحاول أن يدرك أن الاسلام ــ فى فترات الحكم الاسلامى ــ كان هو سمة المؤسسات الحاكمة وهويتها .. بصرف النظر عن الهوية الاقليمية ·

وقد زادت سطوة هذه الطائفة من الألبانيين والمقدونيين والأتراك والشراكسة أيام حكم الخديوى عباس ، حتى جاء الخديوى سعيد الذى أحس بزيادة هذه السطوة فحاول أن يحد منها باتاحة مزيد من فرص الترقى أمام الضباط المصريين . كما جعل التجنيد اجباريا بالنسبة للجميع ، وشجع المصريين على الالتحاق فى صفوف الجيش ، كما شجع أبناء العمد والمشايخ على الدخول فى المعاهد العسكرية حتى يتخرجوا ضباطا ، ومن ثم فانه يمكن القول بأن النواة الأولى لضباط الجيش المصرى قد وضعت فى عهد الخديوى سعيد .

وفى عهد الخديوى اسماعيل أنشىء مزيد من المعاهد العسكرية بمشورة الضابط الأمريكى « كولونيل ستون » . كما صدرت بعض المجلات والنشرات العسكرية ، وبدأ المصريون يكتسبون خبرة ومعنوية جديدة فى الحملات العسكرية التى أرسلها اسماعيل الى السودان والحبشة .

وفي عهد الخديوى توفيق كانت مصر قد أفلست تماما نتيجة ديون الخديوى اسماعيل وبدأت البلاد تقع تحت السيطرة والتأثير الأجنبيين كما بدأت الهوة تتسع بين الضباط الشراكسة والضباط المصريين فى نفس الوقت الذى بدأت فيه بذور الفكر تنمو تحت تأثير شخصيات مثل جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، وبدأت الصحافة المصرية تتناول مختلف الموضوعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى كانت ثورة عرابى التى تعتبر فى الواقع أول حركة يقوم بها الجيش المصرى فى ميدان السياسة فى العصر الحديث . ورغم فشل هذه الثورة فانه من الظلم أن نقلل من أثرها فى الدافع المصرى النامى نحو التحرر الوطنى فى القرنين التاسع عشر والعشرين الذى وصل مداه فى شكل ثورة الضباط الاحرار فى يوليو سنة ١٩٥٢ .

ومن المهم فى هذا الصدد أن نعرض للفترة ما بين ثورة عرابى وثورة الجيش سنة ١٩٥٢ وأن نركز الدراسة بالذات على الفترة ما بين عامى ١٩٢٣ وسنة ١٩٥٢ .

***

لقد ظل الجيش المصرى منذ سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٢٣ تحت السيطرة البريطانية المباشرة ، ومن ثم لم يكن بمقدوره أن يلعب دورا كبيرا فى الصراع ضد الاحتلال البريطانى ، ومن ثم أيضا كانت القيادة السياسية في هذه الفترة فى أيدى الزعماء المدنيين والمفكرين المصريين أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . وفى سنة ١٩١٩ كانت البلاد قد أصبحت تحت الحماية البريطانية وكانت بعض الصناعات قد بدأت تنتعش فى مصر مثل صناعة الغزل والنسيج والدخان والسكر مما أدى الى نشوء طبقة جديدة من أصحاب الأعمال والعمال فى البلاد التى كانت تعتمد كليا على الزراعة ، ومن ثم فقد كون الأقطاعيون من ملاك الأرض طبقة جديدة مع أصحاب الأعمال الجدد فى مقابل طبقة الفلاحين والعمال والطبقة المتوسطة .

وبرز الى السطح فى هذه الفترة تحالف مصرى جديد يضم الطبقة الحاكمة التى كانت دائما أجنبية دخيلة ، ولم يكن فى استطاعة رجل مثل سعد زغلول أن يعتمد على الجيش فى ثورته .. ولكنه اتجه الى الجماهير الشعبية التى أجبرت السلطات البريطانية على اصدار اعلانها الشهير سنة ١٩٢٢ ـ الذى جعل مصر « مملكة مستقلة » ، والتى وضعت الأساس لزعامة طبقة بورجوازية وطنية جديدة يمثلها حزب الوفد بزعامة سعد زغلول الحزب الذى كان فى بداية أمره يواجه الانجليز والقصر معا على أن هذه الزعامة الجديدة لم تكن تستند فى الواقع على أساس

شعبى حقيقى ، فقد كانت تتكون فى مجموعها من طبقة ملاك الأرض والمحامين الأثرياء ورجال الأعمال والزعماء الدينيين المحافظين الذين استطاعوا أن يملكوا زمام الجماهير طالما أنهم كانوا يركزون على الصراع ضد الاستعمار الأجنبى .

بدأت الحياة الحزبية اذن تجد طريقها الى مصر بعيدة كل البعد عن كتل الفلاحين الضخمة التى تمثل الجزء الأكبر من شعب مصر والتى كانت الأحزاب تستغلها ببراعـــة على أيدى ملاك الأرض الاقطاعيين والعمد والمشايخ . ثم كان دستور ســـنة ١٩٢٣ الذى ما لبث الملك أن نقضه في عامه الأول ، ثم فى سنة ١٩٢٨ حتى ألغاه سنة ١٩٣٠ . ووقعت البلاد تحت حكم عرفى بغيض ، وظل حزب الوفد يتصدر الصراع ضد القصر حتى عام ١٩٤٤ ؛ بينما كانت هناك عدة أحزاب أقل فى مكانتها تأخذ مكانها فى ميــدان الصراع الحزبى الذى قســم البــلاد وأتاح للقصر ــ ومن ثم الاستعمار ــ أن يبقى سيطرته .. ولقد تميزت الفترة من ١٩٣٦ ــ ١٩٤٦ بالصراع الذى كان يدور بين القصر والوفد على حســاب القضايا الشعبية العامة فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الأفكار الجديدة تنمو على أيدى طبقة المثقفين من أمثــال طه حسـين وعلى عبد الرازق وغيرهما .

ومن ثم كانت الفترة من ١٩٤٦ ــ ١٩٥٢ تعتبر بحق أهم الفترات فى التاريخ المصرى الحديث ، لأنها كانت تمثل نهاية عصر وبداية عصر آخر ، كما تميزت على الأخص :

١ ــ بالحركات الارهابية رغم جهود الحكومات لقمعها .

٢ ــ بتصميم القصر على اتباع سياسة الحكم المطلق التى دفعت الأحزب الى صراع على البقاء بينها .

٣ ـ بفكرة سيطرت على اذهان الجماهير الشعبية على أوسع نطاق ، هى أن « الثورة » هى القادرة وحدها على أن تأتى بشىء جديد .

كما أن هذه الفترة تميزت أيضا ، بحركات العنف والاضراب التى شملت مختلف طبقات الشعب وفى مقدمتهم الطلبة فى الجامعات والمعاهد ثم العمال فى مختلف أماكن التجمع العمالية وعمال المواصلات . والمرضين فى مستشفى قصر العينى ثم الاضراب الشهير لرجال البوليس سنة ١٩٤٨ .

وكانت أوضاع السياسة المصرية في ذلك الحين هى كما لخصها « محمد حسين هيكل » فى « مذكراته السياسية » . ولم يكن النظام السياسى قد استقر بعد على مبادىء محددة يقبلها الجميع ، فقد كانت لا تزال هناك اختلافات عامة فى وجهات النظر حول سلطة الملك كرأس للدولة وبين الأمة المصدر لكل قوى السيادة .

وفى هذه المرحلة من مراحل الصراع السياسى ، برز عدد من الكتاب قدموا دراسات ثورية فى شكل قصص قصيرة ومسرحيات وروايات طويلة منحت القارىء شيئا جديدا وتصويرا حقيقيا لحياة المصرى العادى . وكان هؤلاء الكتاب من الأطباء الشبان والمحامين والمهندسين والصحفيين الذين نشأوا من أصل متواضع وشاركوا الملايين أحاسيسها . ومن ألمع أولئك الذين دعموا هذا الدفع الفكرى الثورى رجال مثل : « خالد محمد خالد » (من هنا نبدأ) ... كما أخرج « طه حسين » قصته الشهيرة (المعذبون فى الأرض) وفيها وصف صريح للفقر المدقع الذى كان يرزح تحته غالبية الشعب المصرى ، وظهرت كتابات « لمحمد فريد أبو حديد » و « يوسف أدريس » ركزا فيها على عزة هذا الشعب ، بينما أخرج

« عبد الرحمن الشرقاوى » قصة « الأرض » التى اعتبرت هجوما خطيرا على الأوضاع الأقطاعية ، وخطرا بالغا على الأمن . كما ظهرت كتابات فى مجلة « روز اليوسف » بأقلام « أنور السادات » و « احسان عبد القدوس » ، « أحمد بهاء الدين » وحتى بقلم « عبد الناصر » نفسه تحت أسماء مستعارة كلها تهاجم الأوضاع الفاسدة القائمة آنذاك .

ولقد كان معظم هذه الكتابات نابعا عن رد الفعل لفشل العمل العربى الجماعى فى فلسطين . كما أن حرب فلسطين كانت السبب فى اندلاع موجة من الاغتيالات فى الميدان السياسى .. وقد مرت البلاد بفترات عصيبة من القلق وعدم الاستقرار نتيجة الأوضاع الفاسدة ، وكانت تلك فرصة للسياسيين المحترفين ، فبدأت وزارات تقوم ووزارات تسقط ، ثم كان حريق القاهرة الشهير الذى كاد أن يودى بالبلاد الى كارثة ، وبدأ الهجوم على الملك يأخذ طابع الصراحة من الأوساط الوطنية .

ماذا كان الوضع فى الجيش المصرى آنذاك ؟ . كان الملك يعتبر الجيش جيشه الخاص وأداته لتعذيب الشعب اذا حاول أن يتمرد على حكمه الفاسد ، فقد وضع فى قيادته حفنة من أتباعه من ذوى الرتب العالية حتى يضمن خشوع الجيش لأوامره ، خاصة وأن « جماعة الضباط الأحرار » كانت قد بدأت تنشر منشوراتها فى كل مكان داخل صفوف الجيش وخارجه . وكان الملك يرى أنه قادر على أن يسيطر كذلك على الأحزاب نفسها بسيطرته على الجيش كما أن هذه الأحزاب نفسها كانت تشجعه على هذا التفكير بمناوراتها السياسية التى لم يعد الشعب عاملا هاما فيها حيث أن الشعب نفسه كان قد فقد بمجموعة ... ايمانه بهذه الأحزاب، وأصبح يحس فى قرارة نفسه بأن شيئا واحدا يمكن ان يغير الاحوال ، وبأن ينقذ مصر من هذه الهاوية التى تردت فيها

سياسيا واجتماعيا . الثورة .. ولكن هناك الجيش .. الحائل الوحيد بين الشعب والقصر ، بين الشعب وهذه الثورة ، ولم يكن غريبا أن يكون تفكير الشعب بمجموعه منصبا فى ذلك الوقت على أمل فى هذا الجيش ، الجيش الذى أصبح « مصر » تماما باعتباره الأداة الوحيدة القادرة على تغيير الأوضاع .

وفى ٢٣ يوليو .. انتفض الجيش .. جيش الشعب « المصرى » ولم يعد الجيش يمثل « العقبة » بين القصر وبين الشعب والثورة .. بين الشعب وتغيير الأوضاع .. وأصبح الشعب الآن – والجيش فى طليعته – وجها لوجه أمام القصر .. أمام الفساد السياسى والاجتماعى .

كان من الواضح أن الاستعمار البريطانى منذ وطئت أقدامه أرض مصر عمل على أن يتابع سياسة بعض الحكام القدامى من أسرة محمد على فى عدم اتاحة الفرصة للجيش المصرى فى مجال التجربة والخبرة الا فى أدنى الحدود ، ومن ثم فقد أصدر البريطانيون عن طريق الخديوى توفيق قانونا في سبتمبر سنة ١٨٨٢ صفوا به الجيش المصرى بحيث لا يصبح قوة محاربة حقيقية . ليس هذا فحسب بل انهم بعثوا بما تبقى من كتائبه الى السودان بحجة المساعدة فى اخماد الثورة المهدية ، ولكى يبعدوه فى الحقيقة عن أرض الوطن أكثر فترة ممكنة حتى لا يكون عقبة فى سبيل سيطرتهم على مقدرات البلاد ، ولقد أبعدت أكثر هذه القوات المرسلة الى السودان بقيادة الجنرال « هيكس » فى معركة « شيكان » فى نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، ومن ثم أعاد البريطانيون تنظيم الجيش المصرى تحت سيطرتهم المباشرة بواسطة قائد انجليزى أطلق عليه لقب « سردار » ، كما أبقوا على نظام البدل النقدى حتى يضمنوا أقل عدد ممكن من المجندين فى مجال التدريب

الحربى معظمهم من الفلاحين الفقراء الأميين الذين لا يقدرون على دفع قيمة البدل العسكرى .

وفى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٢ أعلنت مصر ملكية مستقلة ، واحتفظت بريطانيا بحق الدفاع عن طريق مواصلاتها الحيوية مما أتاح مزيدا من الاشراف على القوات العسكرية المصرية . ثم كان حادث مقتل السردار « لى ستاك » باشا فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ . وفى سنة ١٩٢٧ اعترض البريطانيون على محاولة الغاء وظيفة السردار وأصروا على ضرورة وجود مفتش انجليزى فى الجيش المصرى وعلى أن تبقى قوات الجيش المصرى على الحدود وتحت اشرافهم . وظل الوضع على هذا الحال حتى سنة ١٩٣٦ الذى أتاح للجيش المصرى شيئا من الاستقلال عن الاشراف البريطانى وان كانت المعاهدة الأنجلو مصرية في هذه السنة قد نصت على أن تسليح الجيش المصرى يجب أن يكون عن طريق بريطانيا وهو نوع آخر جديد من الرقابة والسيطرة .

ولقد ظلت الكلية الحربية المصرية حتى سنة ١٩٣٦ قاصرة على أبناء الطبقة الأرستقراطية ومعظمهم من ذوى الأصل التركى . وابتداء من سنة ١٩٣٦ وتحت الضغط الشعبى فى هذه الفترة السياسية فتحت أبواب الكلية الحربية لبعض الشباب المصرى بصرف النظر عن عراقة الأسرة أو المستوى الاجتماعى أو الاقتصادى .

وفى هذه السنة نفسها ، بدأ أبناء كثير من الطبقات يلتحقون بالكلية الحربية ، ولقد شهدعام ١٩٣٨ بالذات دخول ثمانية من الضباط الأحرار الذين كونوا جماعتهم فى أواخر سنة ١٩٤٩ بين صفوف الجيش المصرى وكان فيهم جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسين الشافعى وكلهم تخرجوا عام ١٩٣٩ .

وأكثر الذين اشتركوا فى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ من أصل متواضع ، آباؤهم وأجدادهم من الفلاحين أو صغار الملاك أو الموظفين فى الدلتا والصعيد • وقد بعث بهم آباؤهم فى الثلاثينات الأولى من هذا القرن الى مدن مثل : الاسكندرية ، والقاهرة ، وبور سعيد ، وطنطا ، والزقازيق • لكى يحصلوا على دراساتهم الثانوية استعدادا للتوظف أو الالتحاق بالجامعة •

ولقد كانت الدراسة الثانوية فى تلك الفترة وبالنسبة لهؤلاء جميعا تعنى اتصالا وثقيا ومباشرا بالحركات الوطنية التى انتهت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ ، وقد كان نشاط الطلبة فى هذه الأيام خاضعا لتحريك حزب الوفد ثم استطاع هؤلاء أن يلتحقوا فى هذه الفترة بالكلية الحربية ، ورأوا قبيل تخرجهم وبعده ـ خلال الحرب العالمية الثانية ـ كيف حشدت بريطانيا فى الدلتا والصعيد ومنطقة الشرق الأوسط كلها أكثر حشود عسكرية شهدتها هذه المنطقة ، ولقد كانت بريطانيا تنظر الى الجيش أحيانا بعين القلق ، ومن ناحية أخرى كان كثير من الضباط الشبان الذين تخرجوا من الكلية الحربية فى هذه الفترة يتمنون فوز دول المحور باعتبار هذا الفوز وسيلة لتحقيق الآمال الوطنية ضد الاستعماريين الانجليز • ومن عجائب الصدف ان بعض الضباط الأحرار كانوا يتلقون فى كلية أركان حرب دراسات فى التاريخ السياسى لمنطقة الشرق الأوسط على أيدى أساتذة بريطانيين ، وقد ذكر واحد منهم لمؤلف هذا الكتاب أن « جمال عبد الناصر » و « أنور السادات « كانوا من تلاميذه الذين يمتازون بالألمعية والروح العالية والاهتمام الزائد فى مجال التغيير الاجتماعى • والواقع أن الدراسة السياسية كان لها أثر كبير فى كل من جمال عبد الناصر وأنور السادات؛ وفى هذا الصدد تبرز أهمية هذه الدارسة بالنسبة لكل من جمال عبد الناصر وأنور السادات بالذات •

ولد جمال عبد الناصر فى الاسكندرية ، وليس فى « بنى مر » الموطن الأصلى لعائلته رغم أن والده عبد الناصر حسين ـ لموظف فى مصلحة البريد ـ كان ينتقل من مكان لآخر حسب طبيعة عمله ٠ وتلقى عبد الناصر دراسته الأولى فى كل من الاسكندرية والقاهـرة ٠ وقد ألف عبد الناصر فى هذه الفترة من حياته تقاليد كل من الصعيد والدلتا ـ الصعيد بواقع أصله والدلتا بواقع حياته ـ وقد استكمل عبد الناصر دراسته الابتدائية فى الخطاطبة ثم الاسكندرية ٠ وبدأ دراسته الثانوية فى حلوان واستكملها فى مدرســـة رأس التين بالاسكندرية ثم بالقاهرة مرة أخرى فى مدرسة النهضة التى عرفت فى ذلك الحين بأنها كانت مصدر الاضرابات السياسية بين الطلبة فى القاهرة ٠ وقد شارك عبد الناصر ايجابيا فى هذه الاضرابات والمظاهرات فى كل من الاسكندرية والقاهرة حتى التحق بالـكلية الحربية ٠ وقبلها أمضى عدة شهور فى كلية الحقوق ٠ وليس من شك فى أن هذه الفترة من الصراع السياسى الداخلى قد أثرت فى التكوين السياسى الأساسى لعبد الناصر ، كما أن هناك أحداثا أخرى كثيرة أثرت فيه فى هذا الصدد ٠ فقد أرسل بعد تخرجه الى «منقباد» حيث أمضى من سنة ١٩٣٨ ـ سنة تخرجه ـ الى سنة ١٩٤٣ ، وكان قد وصل آنذاك الى رتبة « يوزباشى » ٠ وفى السنتين الأخيرتين من هذه الفترة شهد عملية الانذار البريطانى الشهير سنة ١٩٤٢ وحصارهم لقصر عابدين بالدبابات لـــكى يأتوا بوزارة الوفد الى الحكم ، وربما لم يكن لعبد الناصر حتى ذلك التاريخ أى أهـداف سياسية محددة وليس من شك فى أنه أحس كغيره من الشــباب المصرى فى ذلك الحين بالمهانة نتيجة التخاذل والاستسلام البالغين من الحكومة لرغبات الانجليز ٠ كما أنه لابد وأن يـكون قد أحس بالقلق من الأوضاع الاجتمـاعية والاقتصــادية لاخوانه المصريين حسب شهادة زميله أنور السادات فى « قصة الثورة كاملة » ٠ وقد بدأ الاهتمام الايجابى بالسياسة لدى عبد الناصر مع التحاقه بكلية

أركان حرب ما بين عام ١٩٤٥ الى سنة ١٩٤٨ حيث عين بعد ذلك مدرسا بمدرسة الشئون الادارية فى يولية سنة ١٩٤٩ وقد شهد فى هذه الفترة أحداث فلسطين وحوصر وقواته فى الفالوجا ثم عين فى نوفمبر سنة ١٩٥١ مدرسا بكلية أركان حرب ، ولا بد أنه كان قبل هذه الفترة قد استقر فى تفكيره على أفكار سياسية محددة حيث ان تنظيم الضباط الأحرار كان قد بدأ قبل ذلك يمثل خططه الثورية فى المجال السياسى ٠

ونحن نستطيع ولا شك أن نستشف من وراء النشاط السياسى لعبد الناصر فى الفترة السابقة على الثورة أنه ليس شخصا مندفعا أو متهورا كما يشيع كثير من أعدائه ، وأن العنف ليس من صفاته باستثناء حادثة محاولة الاغتيال التى أشار اليها فى فلسفة الثورة وقال : انه لم يستطع أن ينام ليلة كاملة بعدها وأنه كان سعيدا كل السعادة لأن المقصود بها نجا من طلقات المدفع الرشاش٠

أما الشىء الذى لا شك فيه ، فهو ان « ناصر » يتميز بالحرص والتروى وبعد النظر وحسابه لكل صغيرة وكبيرة قبل أن يقدم على أى عمل ٠

وأنور السادات ، ثورى عنيف بطبعه يدل على ذلك النشاط السياسى الذى كان يمارسه حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ٠ فقد اشترك فى محاولة عزيز المصرى رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى أيام الحرب العالمية التانية تخريب عمليات الحرب الانجليزية فى الصحراء الغربية ، وقد سجن بعد ذلك بتهمة الاتصال بالألمان ٠ كما أتهم أيضا بمحاولته اغتيال أمين عثمان ، ثم طرد من الجيش وسجن فى معسكر الاعتقال بالمنيا حتى نجح فى الهرب فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ ٠

كما أن أنور السادات كان فى سنة ١٩٤١ عضوا فى جماعة

الملازمين الأول بالصـــحراء الغربية التى حاولت أن تخرب خطوط المواصلات الانجليزية وقوافل امدادات القوات الانجليزية هناك فى أثناء الحرب العالمية الثانية ٠

والسؤال الآن ٠٠٠ هو : متى تكونت جماعة الضباط الاحرار داخل صفوف الجيش المصرى قبل الثورة ؟

ان أنور السادات يذكر أنها بدأت مع سنة ١٩٤١ فى شـكل جماعة تفكر فى تخريب المجهودات الحربية البريطانية فى الحرب العالمية الثانية وأن أعضـــاءها اجتمعوا فى الزمالك ســنة ١٩٤٢ ليناقشوا حادث حصار الدبابات البريطانية لقصر عابدين ٠٠ على أن علاقة الضباط الأحرار بعضهم فى ذلك الحين كانت عــلاقات صداقة وزماله سلاح ثم بدأت تأخذ صورتهـا الحقيقية وتخطط للعمل الايجابى المباشر فى سنة ١٩٤٩ وخاصة بعد تجربة معركة فلسطين٠

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن هذه الجماعات تكونت من نواة تضم مجموعة من الضباط الأصدقاء تربط بينهم أولا علاقات شـخصية وطيدة ثم تقارب فى الأفكار والأهداف ٠ فالزمالة فى الكلية الحربية بينهم جميعا وقد كانوا دفعة واحدة أو دفعات متقاربة ٠ ثم التقارب بين عبد الناصر وبينهم فيما بين عامى ٤٥ ـ ١٩٤٨ فى كلية أركان الحرب كانت قد كونت ثم حددت الاتصالات بينهم فى فترة سياسية حرجة من تاريخ مصر ، كما أنها قوت من الاتجاه الساسى لهــذه العلاقات التى كانت تربط بينهم ٠ هذا الى جانب أنهم جميعا اتصلوا بعضهم بالبعض فى حرب فلسطين مما زاد هذه العـلاقات قوة على قــوة ٠

ومن ثم ؛ فقد كان عام ١٩٤٩ بداية العمل الجدى الايجابى للضباط الأحرار الذين تكونت مجموعتهم المؤسسة بقيادة جمـال عبد الناصر ، وقد اجتمعت هذه المجموعة فى يناير سنة ١٩٥٠ حيث

انتخبت لجنة تنفيذية يرأسها جمال عبد الناصر الذى أعيد انتخابه رئيسا للمرة الثانية فى يناير عام ١٩٥٢ ٠

ولقد تركز نشاط جماعة الضباط الأحرار فى سنة ١٩٥٠ ومعظم عام ١٩٥٢ فيما يلى :

ـ توزيع المنشورات على أفراد القوات المسلحة والجماعات الأخرى المدنية يهاجمون فيها الحكومة والملك ٠

ـ التغلغل بأفكارها داخل القوات المسلحة لضم أعضاء جدد ٠

هذا الى جانب أن جماعة الضباط الأحرار كانت تستخدم بعض الصحف الوطنية التى كانت تهاجم القصر والحكومة فى نشر أفكارها تحت أسماء مستعارة ٠

وقد استطاع الضباط الأحرار أن يكونوا خلاياهم داخل صفوف القوات المسلحة وكانت كل خلية تتكون من خمسة الى عشرة أعضاء ٠ كما استطاع تكوين جهاز للمخابرات خاص بهم بالنسبة لأن كثيرا منهم كانوا فى مناصب قيادية قريبة من القيادة العليا للجيش ٠ فقد كان أنور السادات مثلا يعرف أخبار القصر عن طريق اتصالاته بطبيب الملك الخاص ٠٠ وكان جمال عبد الناصر على اتصال وثيق ببعض الصحفيين الشبان الذين كانوا يهاجمون القصر والحكومة ٠

وقد تعرض تنظيم الضباط الأحرار فى هذه الفترة لكثير من الأخطار ٠ فعبد الناصر فى ٢٢ يونية سنة ١٩٥٢ أن ابراهيم عبد الهادى قد اتهمه بالقيام بنشاط سياسى هدام بمحضر من عثمان المهدى رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، على أن الملك كان فى هذه الفترة يعتقد أن سيطرته على كبار ضباط الجيش وسيطرة هؤلاء الضباط على قياداتهم ؛ ضمان ضد أى حركة داخلية فى صفوف

الجيش . ولكن اعتقاده هذا تعرض لتجربة قاسية فى ديسمبر سنة ١٩٥١ اليوم الذى حدد لانتخابات نادى ضباط الجيش الذى كان الملك يهتم بها كل الاهتمام باعتبار نتائجها دليلا على ولاء الجيش له حيث كان مرشحو القصر من الضباط هم الذين يفوزون فى الانتخابات عاما بعد عام ؛ حتى كانت سنة ١٩٥١ حيث حدث لأول مرة فى تاريخ هذا النادى ما صفع الملك صفعة قاسية .

فقد أعد تنظيم الضباط الأحرار عدته لهذا اليوم - يوم الانتخابات - وكان الملك حريصا على أن يفوز برئاسة النادى اللواء حسين سرى عامر رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى ذلك الوقت - وأحد رجال القصر فى صفوف الجيش - وقد تناهت الى قيادة الجيش في ذلك الحين أنباء عن محاولة من جانب الضباط الأحرار لافساد خطة الملك ، فألغيت الانتخابات التى كان مقررا أن تعقد فى ٢٧ ديسمبر بأمر القيادة العامة ، ثم أجريت فى يناير سنة ١٩٥٢ بحضور خمسمائة ضابط كلهم يحسون بالعطف والاشفاق على أحوال الشعب المصرى فى صراعه ضد الاستعمار والفساد واستطاع الضباط الأحرار فى هذه الانتخابات أن يحرزوا نصرا كبيرا على الملك بنجاح قائمة مرشحيهم .

ولقد كانت هذه الانتخابات التى لم ينجح فيها مرشح الملك لطمة قاسية له وللحكومة ودفعة قوية لتنظيم الضباط الأحرار عملوا بعدها فى جهد صادق فى ميدان تنظيم صفوف أعضائه الجدد فى ميدان تنظيم صفوف أعضائه الجدد فى ميدان المنشورات والبيانات التى كانوا يوزعونها على نطاق واسع فى المجالين العسكرى والمدنى ، وأصبح الملك على ثقة آنذاك من أن قيادة الجيش لم تعد قادرة على حفظ ولاء الجيش للقصر . وأراد الملك أن يرد للجيش الصفعة فأمر بتعيين حسين سرى عامر رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش - وهو نفس الضابط الذى فشل فى انتخابات نادى الضباط - وكان

واضحا من هذا التصرف ان الملك يحاول أن يبدأ عملا جديدا فى صفوف الجيش يقضى به على جماعة الضباط الأحرار . ففى أوائل يوليو سلم الملك رئيس الوزراء مذكرة عن طريق رئيس ديوانه حافظ عفيفى يطلب فيها :

١ ـ حل ادارة نادى الضباط .

٢ ـ نقل أعضاء النادى المنتخبين الى جهات بعيدة .

ولما فشلت القيادة القديمة فى تحقيق ذلك ، جاء الملك بحسين سرى عامر الى رئاسة هيئة أركان حرب الجيش لتحقيق هذا الطلب، مما اضطر وزارة حسين سرى باشا الى الاستقالة .. وكلف الملك الهلالى بتأليف وزارة جديدة .

وهنا .. كان لابد من عمل حاسم .. كان لابد من أن يسارع الضباط الأحرار بتنفيذ أهدافهم من أجل الشعب قبل أن يستجمع الملك قوته لضربهم وكانت ضربة الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

حاول الملك اذن ، أن يقضى على جماعة الضباط الأحرار .. ليقضى بذلك على آخر أمل للشعب فى الانطلاق والتحرر من الاستعمار والفساد ؛ ولكن الضباط الأحرار استطاعوا أن يتغذوا به قبل أن يتعشى هو بهم ، وانطلقت طلائع الجيش تدك صروح الفساد فى ليلة ٢٣يوليو سنة ١٩٥٢ ، ونجحت تجربة الضباط الأحرار التى نمتها على ثلاثين عاما « صحوة وطنية عارمة شملت صفوف الشعب كله » . بدأت بعد نكسة ثورة عرابى من ١٩١٩ الى ١٩٤٩ ، والتى دفعتها الى العمل الثورى المباشر فترة حاسمة من الغليان الشعبى لم تتوقف لحظة واحدة من ١٩٤٩ الى ١٩٥٢ . نجحت التجربة لأن الشعب كله قام فى لحظاتها الأولى يساندها وهو الذى كان ينتظر هذه اللحظة سنين طويلة .

ولسنا هنا فى صدد الحديث عن قصة نجاح ثورة ٢٣ يوليو فى أيامها الأولى ، فهى معروفة بتفاصيلها جميعا حتى يوم طرد الملك الفاسد . ولكن الذى يهمنا الآن هو الفترة ما بين يوليو ١٩٥٢ وأكتوبر ١٩٥٤ ـ أى الفترة التى نجحت فيها جماعة الضباط الأحرار فى أن تحول نفسها من مجموعة ثائرة من الضباط الى أقدر صفوة حاكمة فى الشرق العربى .

***

وليس من شك هنا ، فى أن الضباط الأحرار قد بدءوا كتنظيم عسكرى للثورة المرتقبة من زمان بعيد . كما أنهم قد استطاعوا بعد تكوينهم كجماعة سياسية ثورية لصيقة بالجيش المصرى أن يظهروا أسلوبا فى الحكم الى جانب أيديولوجية سياسية ناجحة وتشكيل السياسة العامة وتنفيذها ؛ وتأييد الجماهير لها ؛ والاستجابة لحاجات هذه الجماهير ، كل هذا يشكل موضوعات أسئلة على جانب كبير من الأهمية لدى محاولة تقييم النظام الحاضر فى الجمهورية العربية المتحدة .

ولقد أغفل الكثيرون من المهتمين بدراسة القوى الكبرى فى منطقة الشرق الأوسط الدراسة الجدية للنظام السياسى النامى المتطور فى الجمهورية العربية المتحدة . والواقع أن مثل هذا العمل صعب وينطوى على مجازفات خطيرة واحتمالات كبيرة للخطأ ؛ ولكن ذلك ينبغى ألا يحول دون تكوين افتراضات معينة بالنسبة للتطور الضخم المثير فى (مصر) « الجمهورية العربية المتحدة » بالمقارنة بما حدث لبلاد أخرى فى الشرق الأوسط وآسيا حدثت فيها هى الأخرى ثورات لطلائع عسكرية مشابهة .

والواقع أنه من الصعب على أى حاكم أن يخلق مجتمعا عربيا منظما مسئولا يسوده الرخاء فى يوم وليلة ، ولكنها مقدرة جمال

عبد الناصر في هذا الصدد وبقاؤه ونجاحه السياسي طيلة ثماني سنوات (*) .

وقد دأب أعداء الثورة على أن يعتبروا حركة الجيش مجرد تمرد عسكري ؛ ناسين أن الثورة الحقيقية هي التي تقوم باحداث تغييرات جذرية في البناء الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع ، ناسين كذلك ؛ أن حركة الجيش كانت هي بشير الثورة وطليعتها . على أنه من الحق أن نقول ان الأيام الأولى للثورة التي قادها « ناصر » لم تكن توضح بالضبط أهداف جماعة الضباط الأحـــرار وخططهم في العمل ، ولكننا الآن نستطيع أن نقرر الى مدى بعيد طبيعة هذه الأهداف والخطط .. وربما كان ذلك الانطباع الأول من الثورة في أيامها الأولى راجعا الى السرية التامة التي أحاطت بحـركة الضباط الأحرار داخل صفوف الجيش . ولقد وقعت الأحزاب السياسية التي كانت قائمة في ذلك الوقت ، في نفس الخطأ . فقد أصابتها الحيرة والارتباك ، ولم تعرف بالضبط الهدف من وراء هذه الحركة العسكرية التي كانت طلائع الثورة بل ان كثيرين من المراقبين والصحفيين وقعوا في نفس الحيرة .

ومما لاشك فيه أن الأحزاب والجماعات السياسية الأخرى في مصر آنذاك ؛ اعتقدت في أول الأمر أن هذه الحركة موجهة أساسـا ضد الملك والحكومة التي كانت قائمة وقتها وليست موجهة ضـــد النظام السياسي نفسه. ومما لاشك فيه أيضا؛ أنهم كانوا في لهفة الى أن يعود قواد الثورة العسكرية الى ثكناتهم بمجرد أن تتولى الحكم حكومة يرضون عنها . بل ان بعض الجماعات السياسية الأخـرى كانت تظن أن بمقدورها أن تجبر هؤلاء القواد على مشاركتهم في حكم البلاد وأن تفرض وصايتها عليهم . وقد انخدعت هـــذه الأحزاب

* الفترة التي كتب فيها فاتيكيوتيس هذا الكتاب (حتى أواخر عام ١٩٦٠) .

السياسية .وتنفست الصعداء في نفس الوقت حين جاءت جماعة الثورة بعلى ماهر باشا رئيسا للوزاء ، ولم تهتم أيامها بطرد الملك طالما أن « السياسيين » لا يزالون يحكمون • وكانت هذه الأحزاب فى ذلك متفائلة أكثر من اللازم • لقد جاءت حكومة على ماهر بأمر جماعة الثورة وكانت تستمد سلطاتها منها ، ولم يكن مجيئها فى حقيقة الأمر سوى عملية بارعة من قيادة الثورة لتتمكن من الاعداد للحركة التالية ، ولم يكن يعنى أبدا استعدادا أو رغبة من هذه القيادة فى تشجيع حكومة السياسيين المحترفين على حكم البلاد من جديد ، فقد بقيت السلطة الحقيقية والواقعية فى أيدى جماعة ضباط الثورة التي عرفت في ذلك الوقت باسم « مجلس قيادة الثورة » الذى كان هو الآخر تكوينا مبدئيا بارعا لاصدار القرارات الضرورية لحماية الحركة الثورية الجديدة ولكى يحفظ وحدة الجيش من أجل حماية هذه الثورة ، ولكى يحول دون حدوث أى حركات مضادة داخلية ، وفى النهاية ليستحوذ على ثقة الرأى العام الجماهيرى •

وما لبث الأمر أن أصبح أكثر وضوحا عن ذى قبل • ان الضباط الأحرار لم يطردوا الملك وينهوا النظام الملكى كله من أجل سواد عيون الجماعات والأحزاب السياسية التى كانت تتطلع الى الحكم • ومن ثم فقد كان طرد الملك والقضاء الحاسم السريع على الملكية والأمر الذى أصدره مجلس قيادة الثورة الى الأحزاب بتطهير نفسها واصدار قانون تحديد الملكية الزراعية ؛ كان ذلك دلائل صريحة واضحة على أن الثورة ليس فى نيتها أن تعيد الحكم الى السياسيين المحترفين • ولقد كان تحديد الملكية الزراعية ــ أول عمل سياسى اقتصادى قرب القيادة الثورية الجديدة الى قلوب جماهير الفلاحين المعدمين ــ عارم الأثر من الناحية المعنوية • وأحس الفلاحون

عبد الناصر فى هذا الصدد وبقاؤه ونجاحه السياسى طيلة ثمانى سنوات (*) .

وقد دأب أعداء الثورة على أن يعتبروا حركة الجيش مجرد تمرد عسكرى ؛ ناسين أن الثورة الحقيقية هى التى تقوم باحداث تغييرات جذرية فى البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع ، ناسين كذلك ؛ أن حركة الجيش كانت هى بشير الثورة وطليعتها . على أنه من الحق أن نقول ان الأيام الأولى للثورة التى قادها « ناصر » لم تكن توضح بالضبط أهداف جماعة الضباط الأحـــرار وخططهم فى العمل ، ولكننا الآن نستطيع أن نقرر الى مدى بعيد طبيعة هذه الأهداف والخطط .. وربما كان ذلك الانطباع الأول من الثورة فى أيامها الأولى راجعا الى السرية التامة التى أحاطت بحـــركة الضباط الأحرار داخل صفوف الجيش . ولقد وقعت الأحزاب السياسية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، فى نفس الخطأ . فقد أصابتها الحيرة والارتباك ، ولم تعرف بالضبط الهدف من وراء هذه الحركة العسكرية التى كانت طلائع الثورة بل ان كثيرين من المراقبين والصحفيين وقعوا فى نفس الحيرة .

ومما لاشك فيه أن الأحزاب والجماعات السياسية الأخرى فى مصر آنذاك ؛ اعتقدت فى أول الأمر أن هذه الحركة موجهة أساسا ضد الملك والحكومة التى كانت قائمة وقتها وليست موجهة ضــد النظام السياسى نفسه . ومما لاشك فيه أيضا؛ أنهم كانوا فى لهفة الى أن يعود قواد الثورة العسكرية الى ثكناتهم بمجرد أن تتولى الحكم حكومة يرضون عنها . بل ان بعض الجماعات السياسية الأخـرى كانت تظن أن بمقدورها أن تجبر هؤلاء القواد على مشاركتهم فى حكم البلاد وأن تفرض وصايتها عليهم . وقد انخدعت هــذه الأحزاب

---

* الفترة التى كتب فيها فاتيكيوتيس هذا الكتاب (حتى أواخر عام ١٩٦٠) .

الأهداف الوطنية للثورة على طرد الاستعمار من وادى النيل ، وارساء الأساس لمجتمع قوى نظيف ، وتخليص البلاد من عناصر الضعف والرجعية ، واقامة نظام اقتصادى مبنى على أسس العدالة الاجتماعية فى ظل الوحدة والتعاون والعمل المنتج ، ودفع المواطنين الى أداء واجباتهم على أوسع نطاق ، وحماية هؤلاء المواطنين .

وفى المنصورة فى ٩ أبريل سنة ١٩٥٣ ، أعلن جمال عبد الناصر أن هيئة التحرير ليست حزبا ، ولكنها تعنى تنظيما لقوى الشعب من أجل اعادة بناء المجتمع على أسس سليمة . وفى نفس الوقت أوضح جمال عبد الناصر أن أولئك الذين ظنوا أن حركة الجيش كانت تهدف الى مجرد خلع الملك أخطأوا خطأ كبيرا ، فان هذا العمل كما أعلن فى ١٣ فبراير سنة ١٩٥٣ لم يكن الا هدفا صغيرا اذا قورن بالفكرة العامة من الثورة ، وأن أهداف الثورة هى تغيير النظام السياسى من أجل مصلحة الشعب . ومن ثم فانه من الضرورى حماية الثورة ضد أولئك الذين يحاولون اعاقتها عن هذه الأهداف ومنعها من تحقيقها . ولقد ضمت هيئة التحرير الى صفوفها جماهير العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين. ضمت جماهير الشعب بكامل هيئاته فى مواجهة فلول الجماعات السياسية القديمة التى أثبتت افلاسها وضعفها وفى نفس الوقت بدأت الثورة تلتصق بالشعب أكثر وأكثر متحملة مسئولياتها الكاملة فى الحكم .فقد تولى أعضاء قيادة الثورة مناصب وزارية أخرى اثبتوا فيها نجاحهم الكبير . وأصبح واضحا أن الثورة تسير فى طريقها الصحيح بعيدا عن محترفى السياسة عندما أعلنت الجمهورية فى ١٩ يونيو سنة ١٩٥٣ ، وأعلن جمال عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية .

وقد كان تعيين أعضاء الثورة فى المناصب الوزارية الرئيسية يهدف أولا : الى تحقيق السيطرة الكاملة على الحكم كدليل على عدم الاستعداد للعودة الى نظم الحكم التقليدية القديمة ممثلة فى محترفى السياسة . وثانيا : لتمكين قائد الثورة ــ عبد الناصر ــ من مواجهة كل الاحتمالات الرجعية والانتهازية التى بدات تعمل فى الخفاء ضد ثورة الشعب .

وقد التف الشعب حول هذه الثورة التفافا منقطع النظير . فقد رأوا فى قيادتها حكاما يختلفون كل الاختلاف عن أولئك الذين تعودوا عليهم منذ عشرات السنين . لقد كانوا من أبناء الشعب ومن طبقة اجتماعية متوسطة على النقيض من الطبقات الحاكمة السابقة . ولقد رأت الجماهير فيهم نوعا جديدا من الحكام يحمون حقوقهم التى أنكرها محترفو السياسة فى نفس الوقت الذى رأت فيه الأحزاب السياسية تتخبط فى الضعف ورأت فيه الجماعات الرجعية تدور فى حلقة مفرغة من التفسخ نتيجة بعدها عن الحاجات الملحة للشعب .

وكان عام ١٩٥٤ بداية حقيقية للعمل الثورى بعد أن انقضى عامان (١٩٥٣ ، ١٩٥٤) ــ فى التمهيد وارساء الأساس وازالة العوائق ومن ثم بدأت الثورة : ثورة الشعب .. تتجه بكل قوتها الى العمل فى الداخل والخارج . بدأت تضع الأسس الاجتماعية والاقتصادية الجديدة وتخطط للمستقبل في خطوات ثابتة رصينة .

مع نهاية عام ١٩٥٤ كانت ثورة الضباط الأحرار قد ارست الأساس للحكم من أجل الشعب واستطاعت أن تسحق معارضة الاقطاعيين السياسيين المحترفين والمتعصبين والجماعات المتفسخة المتطرفة وأن تطهر الصفوف من المتخاذلين والانتهازيين . وكان

من الضرورى فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الثورة . وتاريخ البلاد نفسها أن تتولى عناصر من القوات المسلحة مراكز القيادة والتوجيه الحساسة لكى تضمن استمرار الثورة .

كما بدأت فى الوقت نفسه تخطو فى تؤدة وتبصر نحو تجميع صفوف الجماهير حول أهدافها ، وخاصة فى أعقاب معركة القنال سنة ١٩٥٦ . ولقد كان من حتمية الواقع أن تسلك الثورة هذا المسلك بعد أن بدأت تواجه مسئولياتها الخارجية ، وبعد أن نجحت فى مواجهة مسئولياتها فى الداخل . ولقد كانت معركة حلف بغداد فى فبراير سنة ١٩٥٥ ، والعدوان الاسرائيلى على غزة فى نفس الشهر ، وصفقة الأسلحة الشهيرة التى قضت على احتكار السلاح .. سببا فى ازدياد الثقة بطليعة الثورة والتفاف جماهير الشعب حولها ، كما منحت هذه الثقة الطليعة ــ مزيدا من الحرية فى مواجهة الموقف السياسى على النطاق العربى .

وفي ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ قدم عبد الناصر دستورا جديدا للبلاد أكد فيه الأهداف الستة للثورة . القضاء على الاستعمار . القضاء على الاقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم . اقامة جيش وطنى قوى . تحقيق العدالة الاجتماعية فى مجتمع ديمقراطى اشتراكى تعاونى .

ومن الواضح أن الثورة كانت قد نجحت فى تحقيق بعض هذه الأهداف بالفعل . فقد قضت على الاستعمار بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، وقضت على الاقطاع بقانون الاصلاح الزراعى الأول ــ أو وضعت الأسس الأولى للقضاء عليه ــ ، كما أنهت بالفعل ــ أو بدأت ــ سيطرة رأس المال على الحكم ، واستطاعت كذلك أن تقيم الجيش الوطنى القوى بعد صفقة الأسلحة التشيكية التى قضت على احتكار السلاح وقلبت موازين القوى فى

المنطقة .. وبقى أمام الثورة آنذك أن تحقق الهدفين الأخيرين — تحقيق العـــدالة الاجتمـــاعية ، واقامة المجتمع الديمقراطى الاشتراكى التعاونى .

وفى هذه المرحلة من تاريخ الثورة أقيم الاتحـــاد القومى كتنظيم شعبى ليستطيع الشعب من خلاله أن يتحقق من أهداف الثورة . وتستطيع الثورة كذلك عن طريقه أن تحقق الديمقراطية الحقيقية والمساواة الاجتماعية والاقتصادية ، ومزيدا من الانتاج ومستوى أكبر من المعيشة .

ولقد نصت المادة ١٣٢ من دستور سنة ١٩٥٦ على تكوين الاتحاد القومى ليمثل الأفكار الثورية فى مجال التطور الســياسى بالجمهورية العربية المتحدة — مصر — ولقد وصف عبد الناصر الاتحاد القومى بأنه جهاز لتنظيم الجماهير لتكتسب وسائل تحقيق أهداف الثورة — فالجيش الذى قاد الثورة وقدم طليعتها لم يكن تنظيما سياسيا ، فلم يكن أكثر من وسيلة ارتضاها الشعب عندما فشلت كل الوسائل والتنظيمات السياسية التى أقيمت لجماهيره فى أن تحقق أهدافه .. ومن ثم فان تلك الطليعة .. ارادت أن تقدم تنظيما شعبيا جديدا يختلف كل الاختلاف عن التنظيمات السياسية القديمة التى كانت وقفا على محترفى السياسة .

ولقد كانت الثورة تحتاج الى جهاز ثورى يأخذ على عاتقه مهمة التنظيم والتخطيط والقيادة ، ويمثل فى نفس الوقت أداة الثورة لتحقيق أهدافها . ولم يكن يكفى وجود جهاز ثورى فى صفوف الجيش ، ولكن لكى تكتمل الصورة كان من الضرورى أن يوجد مثل هذا الجهاز فى صفوف الشعب أيضا . وفي هـــذا الصدد كتب « أنور السادات » فى أول يونيو سنة ١٩٥٩ يصف مهمة الاتحاد القومى بأنها أشبه بمدرسة لتخريج جيل جـــديد

تهيأ له امكانيات الحكم السياسى وخدمة البلاد فى مختلف المجالات على أساس التعاليم الثورية الجديدة ، وبأن الاتحاد القـــومى ضرورة اقتصادية واجتماعية قبل أن يكون ضرورة سياسية . ومن ثم فان الاتحاد القومى كان تنظيما مرحليا لتوعية جماهير الشعب وتبصيرها بأهداف الثورة واعدادها اعدادا سليما لتحمل مسئولياتها فى البناء ـ بناء المجتمع الجديد الاشتراكى الديمقراطى التعاونى ـ كما أنه يعتبر سدا منيعا ضد ما يمكن أن تفعله من تخريب الجماعات اليمينية واليسارية على حد سواء باعتبار أنه يضم كل طوائف الأمة : المثقفين ، والعمـــال ، والفـلاحين ويوجه نشاطهم على أساس الفهم الثورى الجديد .

وقد تكون الاتحاد القومى بصفة رسمية فى مايو سنة ١٩٥٧، وفى انتخابات يوليو سنة ١٩٥٧ لمجلس الأمة ـ ٣٥٠ مقعدا ـ كان من الضرورى أن يوافق الاتحاد القومى على أسماء المرشحين لهذه الانتخابات ، وقد وافق الاتحاد القومى بالفعل على أســماء ١٣١٨ عضوا . وكانت نتيجة هذه الانتخابات بالنسبة لعدد المقاعد ٣٣٪ للمحامين ورجال الأعمال ، ١٠٪ من عمد المدن والقرى ، ٣٠٪ من الموظفين والوزراء السابقين وضـــباط الجيش الذين قدموا استقالاتهم ليشتغلوا بالأمور العـــامة ، ١٢٪ من ملاك الأرض ، ٣٪ للعمال ، بينما لم يمثل ـ الفلاحين ـ الحقيقيين أحـد من الأعضاء (وقد أورد المؤلف هنا عرضا للتدرج الهرمى لتنظيمات الاتحاد القومى من القاعدة الى القمة) .

وقد اجتمع مجلس الأمة فى يوليو ســـنة ١٩٥٧ ـ مارس سنة ١٩٥٨ ـ وبدأ أعماله بالاستماع الى الرئيس والوزراء وهم يتحدثون عن برامجهم فى الوزارات المختلفة وعن السياســـة والقرارات التى اتخذت فيها .

وقد أجريت الانتخابات مرة أخرى فى يوليو ونوفمبر ١٩٥٩ ــ بعد الوحدة ــ ولتكوين مجلس أمة مشترك على أسس تنظيمات جديدة في الاتحاد القومى . وقد أثبتت هذه الانتخابات فى مصر أنه لم يكن هناك ــ بقايا ــ حزبية تستطيع أن تحدث شيئا من الصراع بعكس الحال فى سوريا التى كشفت التجربة فيها كثيرا من أوجه الصراع السياسى كان واضحا حتى قبل اجراء الانتخابات، وكان عاديا قبل الاتحاد القومى والغاء الأحزاب .

ولقد صرح « أنور السادات » للصحافة آنذاك ، بأن الاتحاد القومى فى شكله النهائى سوف يضع السياسة العـــامة للدولة وسوف يعكس رغبات الجماهير للحكومة .

هذه الرغبات التى تجىء من المستويات المحلية عبر مختلف درجات التنظيم الهرمى الى مجلس الأمة ، كما أن الاتحاد القومى سوف يناقش الحكومة فى صدد تنفيذ السياسة العامة . على أن الأمر الهام فى تصريحه هو أن لجان الاتحاد القومى سوف يكون من حقها أن ترفض أو تقبل المرشحين للعضوية فى مختلف النقابات واتحادات العمال وغيرها . وهذا يعنى بالطبع أن أحـــدا من الأشخاص لا يمكنه أن يشارك فى البناء الموجه أو الحكم ما لم يكن مقبولا من الاتحاد القومى .

ومن الضرورى فى هذا الصدد أن ننوه ــ بالاتحاد القومى ــ كتنظيم شعبى للكتل الجماهيرية . وقد أبدى ــ الضباط الأحرار منذ الأيام الأولى للثورة التى أشعلوها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ــ قلقهم من افتقاد الحياة السياسية فى مصر الى الفلسفة الاجتماعية والى الايديولوجية أو الاحساس الجماعى والمسئولية العامة . وفي نفس الوقت وعد الضباط الأحرار بأن يعالجوا هذا النقص . ولقد كان الاحساس العام فى مصر فى ذلك الوقت أنه بينما تغـــلى مصر

بالوطنية البعيدة التأثير بالنسبة لمواجهة العدو الخارجى ، لم يكن هناك الا قليل من ــ الوطنية ــ التى تصلح أساسا لبنـاء دولة مستقرة رشيدة . ولقد رفض الضباط الأحرار أن يثبتوا فى هذا الصدد أية سياسة اقتصادية أو اجتماعية مستوردة ، وفضلوا على حد تعبير الرئيس جمال عبد الناصر أن يظلوا حريصين على ممارسة التجربة . ولقد تطلب بناء دولة مستقرة رشيدة ومجتمع سياسى متجانس ــ تطلب ذلك فى واقع الأمر جهودا جبارة . لقد كان يعقد الأمور بالنسبة لهذا العمل قبل الثوة ، مجتمع اقطاعى زراعى .. الفوارق فيه كبيرة بين أقلية من كبار الملاك وأغلبية ساحقة من الفلاحين المعدمين . ولم يؤثر فى هـذا الوضع كثيرا النهضة الحضارية الشعبية فى بعض مراكز التحضر والتمدن . كما أن هذه المظاهر الحضارية التى لم تستطع أن تكون انفسها شكلا خاصا بها ، لم تؤد الى تغيير سياسى فى الشخصية الزراعية للكتل الاجتماعية . كما أنها فشلت فى أن تقدم اى شيء يمكن أن يؤدى الى خلق طبقة متوسطة كبيرة الحجم . كما أن تقدم التعليم فى مصر في أعقاب الثورة بصورة مذهلة تطلب عملا سريعا حاسما لمواجهة النقص فى مجال الاقتصاد والذى لم يكن قادرا على مواجهة هذا الفيض الضخم من المتعلمين مشكلة البطالة . ومن هنا كانت تبرز أهمية الاتحاد القومى .

على أن هناك جانبا كبيرا آخر من الأهمية بالنسبة لفكرة الاتحاد القومى هو أن هذا الاتحاد كان يعتبر عاملا فعالا فى مجال اعادة تشكيل الصفوة القيادية العاملة وتجانسها ، ولقد كانت السياسة فى منطقة الشرق الأوسط دائما عملا من أعمال الصراع بين مختلف الطوائف كالمحامين والمدرسين والصحفيين والمثقفين المفكرين وكبار الموظفين والطلبة أيضا الذين كانوا يعتبرون من عناصر الطبقة المتوسطة باعتبار اقتحامهم فى المستقبل لمراكز الحكم

بين الصفوة الحاكمة ، ولقد كان هذا الصراع فى النهاية يتبلور عن نظام للحكم يخدم نوعين من التحالف بين كبار الملاك والتجار والبورجوازيين من جهة ، وبين رؤساء الأسر الكبيرة وبعض الزعامات الدينية من جهة أخرى . وعندما حطم الضباط الأحرار هذا البناء السياسى الشاذ بدأت فى نفس الوقت جماعات كثيرة عن هذه الطوائف المحترفة تحاول أن تهيىء نفسها اجتماعيا وفكريا لمعاونة هؤلاء الضباط . وهنا يبرز سؤال ، هل تتجه الجمهورية العربية المتحدة فى سياستها الداخلية نحو نظام الحزب الواحد ؟ .

ان عبد الناصر لا يعتبر الاتحاد القومى شيئا من هذا القبيل، فلقد كانت مشكلة المشاكل بالنسبة للضباط الأحرار أن يبحثوا عن ثقافة وطنية جديدة لقد كانت تسيطر على المنطقة العربية لفترة طويلة فى مجال السياسة مجموعتان اجتماعيتان كبيرتان : الطبقة الحاكمة المحافظة المتحالفة مع كبار الملاك والتجار .. ثم الطبقة الصاعدة من المفكرين والعمال والفلاحين .. وأخيرا جاء الجيش ينادى بالوطنية وواجه ضباطه الأحرار مهمة ضخمة كانت فى انتظارهم ؛ هى أن يرسوا الاساس لأمة حية تسند دولة لم تحدد شخصيتها بعد . وهى مهمة صعبة محفوفة بالمخاطر فى مجتمع لم ينجح أبدا من قبل فى تكوين نظرية واقعية فى نظام الدولة . هذا الى جانب الهوة الكبيرة التى كانت تفصل الأرستوقراطية فى هذا المجتمع عن بقية الشعب . كما أن غالبية الشعب يحبون دائما أن يظهروا بالمظهر الأرستوقراطى حتى يومنا هذا . وعلى سبيل المثال فى هذا الصدد ، فاننا نرى بدلا من الباشوات القدامى فى نادى الجزيرة طوائف أخرى بدأت تحتل مكانهم . هذه الهوة لابد من اجتيازها .. ولابد من خلق أيديولوجية جديدة فى هذا المجتمع . وهنا تبرز عدة أسئلة : هل

الاتحاد القومى قادر على خلق هذه الأيديولوجية واذا نجح فى هذا ، فهل ستكون هذه الأيديولوجية مصرية أو عربية للمجتمع العـربى ؟ .

لقد أخر ظهور أيديولوجية خاصة بالشعوب العربية فى الماضى تلك النظم التعليمية المتصارعة بما فيها نظم الارساليات والمدارس الأجنبية . فلم يكن هناك نظام عام وطنى خالص في مجال التعليم . وكانت النتيجة اخراج عدد من المواطنين الفرنسيين والانجليز والالمان والايطاليين والأمريكيين الذين لايعكسون أيديولوجيـات البلاد التى تعلموا فى مدارسها فحسب ، بل الذين أحسوا بأنهم بعيدون كل البعد عن حكوماتهم الوطنية عندما برزت هـــذه الحكومات الى الوجود .

وبالاضافة الى هذا كله ، فان التغييرات السياسية المستمرة والتيارات الثــورية فى البلاد العربية فى الحقبة الأخيرة من تاريخها قد أدت الى ظهور تشكيلة جديدة من ردود الفعل الهدامة ، كما ان الاتجاهات التى كانت سائدة فى البلاد العربية حول حكم الأسرة والحكم الاسلامى والحكم العثمانى كانت هى الأخرى تشكل عقبة جديدة فى وجه الوصول الى أيديولوجية جديدة وطنية . ومن ثم فان على الحكم الوطنى العربى أن يحطم هذه الحواجز والعقبات جميعا بأن يؤكد على جانب سيادة مبدأ الولاء للدولة . فهل ينجح عبد الناصر والاتحاد القومى فى ذلك ؟

ان هناك دلائل قوية على أن عبد الناصر يحاول جاهدا أن يصل الى وسائل ليستطيع بها أن يحقق التماسك الاجتمـاعى كأساس للحياة الوطنية والثقافة الوطنية . فالى جانب الاتحـاد القومى هناك مؤسسات وهيئات أخرى أريد بها تحقيق هـــذا الهدف الكبير ، فهناك مثلا المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب،

الذى يهدف الى تنسيق الجهود الحكومية وغير الحكومية فىميدان الأدب والفن فى سبيل خلق جيل جديد من الفنانين والأدباء الذين يحسون بالحاجة الملحة الى مزيد من التعبئة الوطنية .. ويتولى هذا المجلس اعانة الأدباء الشبان وتوجيههم ، كما أن نظم التعليم الحديثة تهــدف الى خلق جيل جديد من المتعلمين بعيدا عن التأثيرات الأجنبية المذهبية والى خلق أنواع جديدة من التعليم فى المجالين الزراعى والصناعى .. هــــذا الى جانب مشروعات ــ الوحدات المجمعة ــ التى تنتشر فى أنحاء البلاد وخاصة فى الريف لتقدم كافة المساعدات الصحية أو الزراعية أو الثقافية المختلفة .. للمواطنين . وقد بدىء فى انشاء هــذه الوحدات فى سنة ١٩٥٤ .. وفى سنة ١٩٦٠ أصبح هناك أكثر من ٢٦٠ وحدة وأصبحت هذه الوحدات فى نفس اليوم تحت اشراف الاتحــاد القومى . كما أن هذا الاتحاد قد أخذ يغزو مختلف أوجه الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والصناعية فى البلاد .

وبدأت الثورة تهتم بالطبقات العاملة ، فأصــدرت القوانين المختلفة التى تحدد الحد الأدنى للأجور ، وتحدد علاقة العــامل بصاحب العمل وتيسر مختلف التأمينات للعمال ، ومن ثم أصبح العمال الصناعيون والتجاريون من أكبر قطاعات القوى العاملة فى الجمهورية العربية المتحدة ويصل عددهم (فى سنة ١٩٦٠) من مليونين ونصف الى ثلاثة ملايين على وجه التقريب . أى يمثلون ١١٪ من عدد السكان ويعملون فى صناعات الغزل والنســيج والبترول والنقل وغيرها من مختلف الصناعات النامية ، وفى نفس الوقت اهتم الضباط الأحرار بوضع الخطط للاسراع فى حــركة التصنيع على أوسع نطاق ممكن ولاستيعاب أكبر عدد ممكن من العمــال .

اما بالنسبة للعمال الزراعيين ، فقد صدرت عـدة قوانين تحدد طبيعة عملهم وتقرر ثمانية عشر قرشا حدا أدنى لأجورهم اليومية . وان كان هذا القانون يعتبر فى حقيقة الأمر هدفا أكثر منه أثرا واقعا .. ولا يزال العمال * الزراعيون واقعين تحت رحمة مقاولى العمال الذين يمثلون الوسطاء .. والذين تأمـل حكومة « ناصر » فى التخلص منهم والتوسع فى حركة الاتحادات التعاونية واتحادات العمال الزراعيين . وفى سنة ١٩٥٨ أصدرت الحكومة قوانين التأمين على الصحة وضد الحوادث . ويؤمل أن تطبق هذه القوانين بالتدريج على كل القوى العاملة بالجمهورية العربيـــة المتحـدة .

ويوجد حاليا بالجمهورية العربية المتحدة اتحادات مختلفة عديدة تضم المحامين والأطباء والصيادلة والموسيقيين والفنـانين والكتاب وغيرهم ويبلغ عددها (سنة ١٩٥٧) حـوالى المائتين ، وينبغى تمييزها عن الاتحادات العمالية ، ولكنها جميعا أصبحت تخضع لاشراف الاتحاد القومى الذى أصبح من حقه أن يقـــر أو يرفض عضوية المرشحين لمختلف المناصب القيادية فى هـذه الاتحادات جميعا .

ولقد واجه الضباط الأحرار فى بدء الثورة دخـــلا قوميا محدودا يعتمد فى معظمه على تصدير سلعة واحدة هى القطن ، ولقد أعلنت الثورة فى أيامها الأولى أنها ستعمل على رفع مستوى المعيشة بين المصريين جميعا بزيادة الانتاج على أساس أساليب زراعية حديثة وباعادة توزيع الأرض ثم بالتوسع فى أصـــلاحها وتحسين طرق الرى . وبالمضى قدما في مجال التصنيع ومختلف الخدمات التى تتصل بهذا كله . كما أن الثورة وعدت بمضاعفة

* قبل صدور مختلف القوانين والقرارات الخاصة بعمال التراحيل .

الدخل القومى خلال عشر سنوات تكون زيادة عدد السكان فيها حوالى ٥ر٢٪ سنويا .

والحق يقال ، أن أحـــدا لا يستطيع أن ينكر مجهودات « عبد الناصر » فى مواجهة المشاكل الداخلية بعزم صادق لم تعرفه مصر فى عهد سابق وذلك منذ الأيام الأولى للثورة . ففى ديسمبر سنة ١٩٥٢ . على سبيل المثال ، قررت الثورة تكوين مجلس دائم للانتاج مهمته الاشراف على المشروعات الصناعية ذات الأهمية مثل محطات القوى الكهربائية ووســائل الاتصالات المختلفــة والتعدين والصناعات الأولية .. الخ .

فلقد رأت الثورة لتحقيق مشروعاتها فى حقلى الصـناعة والزراعة ألا تترك نشاط القطاع الخاص يعمل كما يشاء . فحققت فى صدده نوعا من المشاركة والتخطيط على أن تبتعد باقتصاديات البلاد عن الخطر المألوف الذى كان يسير على القطاع الخـاص ؛ وهو تحقيق الربح السريع عن غير طريق المشروعات الصـناعية واسعة النطاق . ومن ثم بدأت الثورة تعمل على تحقيق الفرص المتكافئة أمام جميع قطاعات الشعب العاملة على أســاس من التخطيط النوعى للمستقبل .

والى جانب هذا كله ــ ويتصل به اتصالا وثيقا ــ الاتحادات التعاونية التى أقامتها الحكومة فى خطة وزارة الشئون الاجتماعية تهدف الى معاونة صغار المنتجين فى مجال التسويق بالنســبة للانتاج الزراعى والى ربطهم بالمجهودات العامة لرفع مستوى هذا الانتاج بالتضافر مع الوحدات المجمعة وتحت اشراف الاتحـاد القومى . وليس بعيدا أن تصبح برامج التعاونيات هذه . وأن تصبح الاتحادات التعاونية فى الريف ، وسيلة لتحقيق المشاركة

السياسية للفلاحين فى قراهم . والواقع أن الرئيس جمـــــال عبد الناصر يولى حركة التعاون هذه اهتماما فائقا .

منذ سنة ١٩٥٦ ، اذن ، ارتفع شعار جـــديد فى مصر : « مجتمع اشتراكى ديموقراطى تعاونى » .. ولقد كان من أهداف الثورة الأولى أن تأخذ بيد المجتمع العربى في طريق التحضر القائم على أسس من التصنيع وزيادة الانتاج والتغيرات الاقتصــــادية والاجتماعية الجذرية ينبثق عنها نظام سياسى جديد .

الى جانب هذا ، فقد بدأ لأول مرة فى مصر ، دعوة للوحدة العربية وارتفع شعار « العروبة » فى السنوات الأولى للثورة . هى اذن ثورة وطنية ، ثم هى تنادى بالعروبة وبالوحدة العربية.

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٤ أصــدرت قيادة الثورة قانونا بانشاء « المؤتمر الاسلامى » بهدف اجتماعى ثقافى من أجل خير المسلمين جميعا .. وذلك لنقل التراث الاسلامى الى اللغات الآســيوية والأفريقية المختلفة . ودراسة المشاكل الاقتصادية لمختلف البلاد الاسلامية وانماء العلاقات التجارية بينها ونقل رسالة الاسلام الى أفريقيا وآسيا وتدريس اللغة العربية ونشر القرآن الكريم على أوسع نطاق بين المسلمين فى كل مكان . وتأسست مراكز للثقافة الاسلامية فى القدس وأندونيسيا والصومال ونيجيريا الشمالية الى جانب مركز رئيسى لرعاية الشباب الاسلامى .

وكان الاشراف على المؤتمر الاسلامى من المسئوليات المباشرة للرئيس « جمال عبد الناصر » الذى عين « أنور الســـادات » سكرتيرا عاما له يعاونه مجموعة من الأدباء المسلمين .

ولقد اهتم المؤتمر الاسلامى فى المحل الأول بتوثيق العلاقات بين مصر ومختلف البلاد الاسلامية الأخرى وخاصة نيجــيريا

والصومال ، كما خصص منحا دراسية عديدة لمختلف الطلاب المسلمين ليدرسوا فى الجامعة الأزهرية والجامعات العلمانية الأخرى فى مصر الى جانب اهتمامه بمد يد المساعدة الطبية للبلاد الاسلامية المتخلفة .

ولقد كان المؤتمر الاسلامى فى نفس الوقت دليلا على أن الحفاظ على الاسلام وحماية رسالته لا يمكن أن تكون وقفا على الزعماء الدينيين فحسب ، والحق أنه على النقيض مما يظنه كثيرون من الغربيين فان المواطن المسلم العادى لا يتعلق مطلقا بفكرة اقامة دولة دينية بالمعنى الحرفى العقائدى لهذه الكلمة . فهو يريد دولة ذات كفاية وحسب . وقد رحب كثيرا بالغاء المحاكم الشرعية ، كما رحب بالقوانين التى ساوت بين الرجل والمرأة فى كثير من المظاهر الاجتماعية والسياسية ، على أن هذا لا يعنى مطلقا أن « الدولة » ابتعدت عن الاسلام . فتدريس الدين الاسلامى اجبارى فى المدارس. ولا زال الاحساس الدينى قويا بين الجميع وفى مقدمتهم الحكام أنفسهم الذين تصدر كل مكاتباتهم الرسمية بالعبارة الكريمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ولا يستطيع أى حاكم فى مصر أن يتخلى كلية عن الدين الاسلامى .

ولقد كان من الضرورى الأخذ بشكل علمانى وطنى فى الحكم مع الحفاظ على التراث الاسلامى والروح الاسلامية . ولقد أثبت تاريخ المنطقة العربية الاسلامية منذ بدء تاريخها أن العلاقة بين السياسة والعقيدة كانت دائما تظهر أن الأولى تسيطر على الثانية وتستغلها . ولقد أدرك « ابن خلدون » فى مقدمته الشهيرة هذه الحقيقة وأوضحها . ولقد برزت العصبية والتحزب الدينى أول ما ظهرت ، فى الاسلام ، أيام الامام على كرم الله وجهه ، تحت تأثير الاعتبارات السياسية آنذاك .

ومن ثم فان الثورة فى مصر كانت مقتنعة فى رغبتها فى فصل السياسة عن العقيدة ؛ ولكن المهمة أمامها شاقة فى خلق المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى فى مجتمع سواده الأعظم من الفلاحين فى خمسة آلاف قرية من قرى مصر عاشوا طويلا وسط تقاليد نمتها الزعامات الدينية التى استطاع السياسيون دائما أن يسيطروا عليها ويسيطروا معها على الملايين من أتباع مشايخ الطرق وخلفاء الأولياء الذين يمثلون زعامات دينية محلية فى القرى والمدن .

لقد جعل التاريخ الجغرافى السياسة من مصر مركزا للاشعاع الاسلامى وزعيمة القومية العربية ، ولكنها هى التى استطاعت أن تقدم لفكرة العروبة والقومية العربية أكثر مما تستطيع أية دولة عربية أخرى . ومن ثم فانه رغما عن عزلة مصر التى سبقت زعامتها للعروبة فان مكانتها كمركز ثقافى وفكرى للاسلام وتاريخها الحافل قد أتاح لها أن تكون ذات تأثير بعيد فى حقل العروبة . وفى ذلك يقول « ميشيل عفلق » فيلسوف حزب البعث العربى الاشتراكى « انه بالرغم من سبق سوريا فى ميدان الدعوة العربية الا أن أوضاعا معينة فى مصر » استقلالها السياسى وحريتها الكاملة والاهتمام الكبير بالحاجات الاجتماعية والشعبية من جانب حكامها بعد الثورة قد منحتها كفاءة أكثر فى قيادة قضية العروبة كما أن « عفلق » يقول كذلك : ان مأساة فلسطين قد جعلت مصر تتخلى عن عزلتها القديمة، ومع السنوات الأولى للثورة بدأ قادتها يركزون على فكرة القومية العربية والوحدة العربية .

ومنذ سنة ١٩٥٥ أخذ الضباط الأحرار يقدمون ثورتهم باعتبارها تعبيرا عن حركة واتجاه القومية العربية وقد أشار الى ذلك أنور السادات فى مارس سنة ١٩٥٧ اذ أكد أنه لا شىء وراء ثورتنا

نحو القومية العربية التى أيقظت تطورا تاريخيا جديدا ينبغى علينا أن ننمى هذه العلاقة بين شعوب الأمة العربية لأنه ما ان قامت الثورة فى مصر حتى قدمت للأمة العربية أمة واحدة مشتركة تشترك فى تاريخها وفى مصيرها ٠

وفى نفس الشهر قال جمال عبد الناصر فى وفد من طلبة فلسطين بعد انسحاب اسرائيل من قطاع غزة وهو يؤكد على العروبة كسلاح سياسى واجتماعى أساسى فى أيدى العرب « ان القومية العربية هى السلاح الذى يحمى الأمة العربية من مؤامرات الاستعماريين أنها سلاح الأمة من أجل حماية مستقبلها ٠ القومية هى الوسيلة التى نستطيع بها أن نستخلص حقوقنا فى الاستقلال والحرية » ٠ ويبدو واضحا من هذا أن لفظة « الأمة العربية » قد أصبحت منذ زمن قريب لفظة على جانب كبير من الأهمية فى قاموس الوطنية العربية ٠ وهى تشير الى كل الدول التى يتحدث أبناؤها العربية وتصر على وحدتهم باعتبارها أملا رئيسيا لكل العرب ٠ أما التعبيرات الأخرى فى المحيط العربى وخاصة تلك التى ظهرت فى مصر لأول مرة مثل الحياد الايجابى ، « والمجتمع الثورى » — « والديموقراطية الاشتراكية التعاونية » فهى جميعا تمثل سياسات من أجل اقامة الأمة العربية ٠

وليس من شك فى أن الضباط الأحرار المصريين بقيادة «ناصر» يعتبرون بثورتهم نموذجا للحركات التحررية وقياداتها فى كل البلاد العربية الأخرى ٠ ولقد تسبب ذلك فى اتهامهم فى السنوات القليلة الماضية بالرغبة فى التوسع ٠ وذلك خلال أحداث حكومة النابلسى فى الأردن عام ٥٦ — ١٩٥٧ وخلال أحداث لبنان فى مايو — سبتمبر ١٩٥٨ ومن ثم بدأ بعض حكام الدول العربية الأخرى يخرجون «عروبة» جديدة تتفق مع مصلحة كل واحد منهم ٠ فهناك عروبة فى بغداد

تقوم على معارضة القومية العربية والتى تنادى بها القاهرة . وهناك عروبة خاصة بعمان تعتبر كلا النوعين السابقين شكلا متأخرا وأنها هى السابقة فى هذا الميدان . على أن هذا الاختلاف نفسه وتشبث كل فريق بكلمة « العروبة » يؤكد نجاح القاهرة فى اشعال لهب القومية العربية فى منطقة الشرق الأوسط ويؤكد آمال الجماهير العربية فى هذه القومية وفى الثورة المصرية التى نجحت زعامتها فى تكوين دولة ذات اعتبار أكدت انتصاراتها على القوى السياسية الكبرى فى العالم بعد أن نجحت فى القضاء على الملكية الدخيلة وفى تحرير البلاد من الاستعمار الأجنبى وفى بدء برنامج للتغيير الاجتماعى والاقتصادى . هذا كله قد شد قلوب الشعوب العربية التى تعيش فى أوضاع اجتماعية واقتصادية سيئة والتى تتطلع الى الكرامة . على أن لفظة « العروبة » تبدو كأنها تعنى أشياء كثيرة بالنسبة لمختلف المستويات . « العروبة » بالنسبة للمثقفين والمفكرين تعنى أيديولوجية معينة تقود حتما الى الولايات العربية المتحدة . وهى بالنسبة لرواد الصحافة تعنى أمل الشعوب العربية جميعها وأمل الحكومات العربية التى تقدر مسئولياتها الحقيقية « فى الوحدة العربية » . وفى الفترة الأخيرة عبر لى عن ذلك فى حديث خاص أحد رؤساء تحرير جريدة الجمهورية القاهرية حين قارن بين الفترة من عام ١٨٦٠ الى ١٩٦٥ ، وبين الفترة التى تعيشها الأمة العربية فى هذه الأيام ، والعروبة كذلك قد تعنى بالنسبة « للجماهير العربية » قوة للمسلمين وتحقيقا لكرامتهم وقد لا تعنى أكثر من ذلك بالنسبة لهم . على أن هذه « الجماهير » بدأت تحت تأثير ثورة القاهرة ، ترى فى « العروبة » شيئا أكبر من ذلك . ترى فيها « القومية » التى تحقق حاجاتها رغباتها وآمالها بعد أن ربطت هذه الثورة بين الفكرة العربية وبين الهدف الثورى فى اقامة مجتمع ديمقراطى اشتراكى تعاونى .

وهكذا ، فان الفكرة العربية أصبحت تسيطر على المنطقة العربية كلها على أنه يبقى بعد هذا ، ان العروبة لم تنسلخ عن تراثها الروحى الممثل فى الاسلام • فما شهدت المنطقة العربية فترة من التاريخ تمتعت فيها بحريتها واستقلالها على الفترة التى أعقبت الاسلام فيها • كما ان أروع أمجاد هذه المنطقة تمت تحت لواء الاسلام ، ومن ثم فان كثيرا من المفكرين يضعون ذلك كله فى الاعتبار حينما يبحثون فى القوى التى تكمن وراء الفكرة العربية ـ القوى التى أثرت فى المجتمع العربى فى الفقرة الأخيرة ؛ وهى ثلاثة :

أولا : قوة داخلية تمثلها الرسالة المقدسة للاسلام التى تدفع المجتمع العربى للأمام نحو الوحدة .

ثانيا : قوة رد الفعل نتيجة تجربة الحكم الأوتوقراطى في العالم العربى •

ثالثا : قوة تتمثل فى الاستعمار والسيطرة الأجنبية وهذه القوة الأخيرة كانت ولا تزال تعوق مجهودات المجتمع العربى من أجل تحقيق الوحدة •

ويستطيع المرء أن يذكر قوة أخرى تقوى الاتجاه الى الوحدة العربية تلك هى قوة « الاحساس والتفكير المشترك » التي نادى بها دعاة القومية العربية وركزت عليها الثورة المصرية فى هذا الصدد ، الى جانب اللغة الواحدة والمشاركة فى تجارب تاريخية واحدة عبر حقبة طويلة من التاريخ • كما اننا نستطيع أن نقول ان اكثر جوانب التطور اليوم فى المنطقة العربية ترجع الى وجود مستويات مختلفة للقيادة فى العالم العربى والى وجود دول عربية مجزأة والى الاختلاف ـ ان لم يكن الاحتكاك ـ بين مصالح بعض الجماعات المحلية الحاكمة•

كما ان اختلاف المستويات السياسية والاقتصادية فى مختلف البلاد العربية يعتبر العمل من أجل الوحدة العربية ٠

والحق ، أن « القومية العربية » كفكرة وعقيدة يمكن أن تكون قوة اجتماعية عارمة ، ولكن هذه القوة قد تتفتت مع اختـــلاف وجهات النظر بين القادة والزعماء الذين يعبرون عن مصالح متعارضة٠ ولقد كانت الفكرة العربية دائما مشتتة تحت مختلف الزعامات منذ بدء التاريخ الحديث للمنطقة العربية ٠ فقد كانت يوما تحت زعامة الهاشميين وهلالهم الخصيب ثم انتقلت الزعامة الى مصر فى ســنة ١٩٤٠ وخاصة بعد انشاء الجامعة العربية فى ظل أسرة محمد على « غير العربية » ثم كانت مأساة فلسطين وثورة مصر التى ثبتت هذه الزعامة فى الضباط الأحرار باعتبارهم القـــادة الثوريين فى المنطقة الذين حققوا نهاية لتشتت هذه الفكرة تحت أيدى مختلف الأسر المالكة العربية قبل أن تقوم ثورتهم ٠ وقد قوى من التفــاف الجماهير العربية والرأى العام العربى حول هذه الزعامة الجديدة أن مصر أصبحت منذ قيام الثورة الهدف الرئيسى لهجمـــات اسرائيل واعتداءاتها والدول الغربية الاستعمارية باعتبارها أكثر قوة يحسب لها الحساب فى المنطقة العربية كلها ٠

ولقد حاول بعض قادة العراق أن يعارضوا زعامة مصر للفكرة العربية وحاول غيرهم نفس المحاولة على أن ذلك كله لم يغير من واقع الأمر شيئا فلا زالت القاهرة تمثل زعامة الفكرة العربية بالاضافة الى فكرة التحرر المصرى والفكرة الأفرو آسيوية التى تمثل جميعها معالم رئيسية من فلسفة ثورتها ٠

على أنه ينبغى بعد ذلك أمام الثورة المصرية أن تعمل جاهدة من أجل تثبيت الفكرة العربية فى أذهان المصريين أنفســـهم الذين عاشوا كمصريين من سبعة آلاف سنة ٠ وانها لمهمـــة صعبة أمام

الصفوة القيادية فى مصر أن تحقق ذلك ، كما انها مهمة صعبة أن تحقق نفس الفكرة على مستوى كل الشعوب العربية التى لا زالت زعامتها تضطرب والتى لا تزال أحوالها الاجتماعية والاقتصـــادية ونظمها السياسية تختلف اختلافا بينا • كما ان « العروبة » قد تجد بعض العوائق وهى تحقق المجتمع المتحضر على أسس علمانية • ومن ثم فان الوحدة قد تكون أمرا يحتاج الى جهد واقتناع بالنسبة لشعب آخر قد لا يرى فى هذه الوحدة نفس ما يراه قادتها من ناحية قيمتها السياسية والاستراتيجية • ونحن حين نتحدث عن « الشعب » هنا نعنى « الجماهير العادية » من الفلاحين الذين قد يكون الاقنــاع « السياسى » بالنسبة لهم من واقع ما قاسوا من غزو واستعمار واستغلال « من الخارج » •

وما يصدق على « فكرة العروبة » فى هذا الصـــدد يصدق كذلك على الفكرة « الأفرو آسيوية » • فالمصرى الذى ألف العزلة زمانا طويلا قد لا يكون من السهل اقناعه بالتخلى عن « مصريته » فى سبيل قومية أكثر شمولا أو فكرة أكثر « عالمية » رغم أنه من واقع « التاريخ » الطويل قد أصبح جزءا لا يتجزأ من هذه المنطقة العربية التى تشترك فى كثير من المقومات الأساسية للأمة الواحدة •

الكتابات
الثالث والرابع

مصر في انتقال

للكاتبين الزوجين الفرنسيين
جان وسيمون لاكوتير

الإصلاح الزراعي في الشرق الأوسط

للكاتبة الإنجليزية:
دورين وارينر



الرئيس

الكتاب الاول للزوجين الفرنسيين «جان وسيمون لاكوتور» الذى اصدر له بعد الاضافات سنة ١٩٥٨ بعنوان « مصر فى انتقال » . وهو كان قد صدر قبل اثنتى عشرة سنة . الا ان عرضه يتيح الفرصة للقارىء لكى يلمس الى أى حد كانت أحكام الكاتبين ـ صائبة أو خاطئة ـ وخاصة فى الجزء الذى تعرضا فيه لحقيقة الثورة الاجتماعية فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

***

أما الكتاب الثانى ، فهو دراسة لعملية الاصلاح الزراعى وتطوير الارض فى كل من مصر وسوريا والعراق . نعرض فيه بطبيعة الحال الجزء الخاص بمصر ، لكى يكون تكملة للموضوعات التى طرقها الكتاب الاول . وعنوان هذا الكتاب « الاصلاح الزراعى وتطوير الارض فى الشرق الاوسط » للكاتبة الانجليزية « دورين وارينر » . وقد صدر اول مرة سنة ١٩٥٧ ثم صدر بعد اضافات جديدة فى سنة ١٩٦٢ .

يبدأ الزوجان «جان وسيمون لاكوتور» كتابهما بفصل تمهيدى يعرضان فيه لبدء عصر النهضة فى مصر مع احداث الحملة الفرنسية التى قادها نابليون فى نهاية القرن التاسع عشر لكى يبدأ تحقيق حلمه فى امبراطورية « بونابارتية » تعيد الى التـــاريخ مرة أخرى أمجاد الامبراطورية الرومانية القديمة •

ولقد كان من أبرز آثار الحملة الفرنسية على مصر أنها حطمت البناء الاقطاعى العسكرى الذى عاش طويلا . ومن ثم فتح الباب على مصراعيه أمام أحتمالات التطور والتغيير السريع وليس من شك أيضا فى أن السنين الطويلة التى عاشـــتها مصر تحت السيطرة العثمانية كانت قد جردتها تقريبا من كل أثر للقومية والشخصية المستقلة بحيث كان تقدمها فى هذا المجال بطيئا استغرق أكثر من مائة وخمسين عاما • ذلك أن هذه السيطرة • جعلت من المــاليك حفنة من قطاع الطرق وصلوا بمصر فى النهاية الى حضيض الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية •

على أن شــــيئا واحدا فحسب ، هو الذى حفظ للمصريين بقاءهم ، ذلك هو الاسلام الذى جعلهم رغم فقرهم وأوضــــــاعهم المادية والمعنوية المزرية يقفون فى وجه الفرنســـيين ويرون فيهم سلالة الصليبيين الذين قابلوهم خلال الحروب الصليبية فى دمياط والمنصورة • ولقد حاول نابليون أن يستغل اســلام المصريين بأن يظهر حبه للاسلام وتقديره لرسوله • وحاول قادته أن يفعلوا ذلك من بعده حتى لقد أعلن أحدهم اسلامه • على أن ذلك كله لم ينجح فى تقريب الفرنسيين الغزاة من المصريين الذين رفعوا السلاح وثاروا أكثر من مرة لكى يطهروا أرضهم من سلالة الصليبيين ، ولكن ذلك

لا ينفى أن الحملة الفرنسية ألقت بذرة جديدة فى أرض مصر • فقد رأى المصريون علوما جديدة وأساليب تكنولوجية لم يعهدوها من قبل ، كما أن هذه الحملة قد أطاحت بسمعة المماليك بحيث فقدوا احترام المصريين لهم ـ أو قل خوفهم منهم ـ مما مهد لمحمد على بعد ذلك القضاء عليهم فى سهولة ويسر •• وأقامت ما يشبه الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين عندما أصر الفرنسـيون على أن يوكلوا أمر جباية الأموال الى ثمانية من المسلمين بعد أن كان المماليك يسندون الجباية الى المسيحيين فحسب الأمر الذى كان يظهرهم أمام اخوانهم المسلمين بصورة (عملاء) للمماليك ومساعديهم فى طغيانهم وظلمهم • هذا الى جانب مجموعة العلمـاء الفرنسيين فى جميع المجالات مثل « مونجيه •• وديزييه •• وكافاريللى •• وبور تونيه •• ولارى •• وجيو فروى» وغيرهم الذين وضعوا بذور الدرس والبحث الحديث فى مصر •

والخلاصة فى هذا الصدد أن الحملة الفرنسية نزعت الغشاوة الكثيفة عن أعين المصريين ووضعتهم على أول عتبـات التقـدم الحضـارى ثم انهـا ـ وهذا هو الأهم ـ ألقت بمصر فى دوامة السياسة العالمية .

ولقد تابعت الأحداث سريعة وحاسـمة بعد فشـل الحملة الفرنسية وخروج قواتها من أرض مصر ، واستطاع محمد على أن يخلق « دولة » من مصر ، وخرجت مصر فى فترة حكمه من مرحلة « الأمة » التى يرتبط أبناؤها بالاسلام فحسب الى مرحلة الدولة التى عرف أبناؤها الوطن « البلد الأم » • فان حروب محمد على كانت كلها فيما عدا « حروب المورة » كانت موجهة ضد بلاد اسلامية مثل الجزيرة العربية وسوريا وتركيا بمساعدة قوى أجنبيةمسيحية فى بعض الأحيان•ولقد كان محمد على يستعين كثيرا بالمسيحيين الأقباط

كمستشارين له مما خلق بذرة التوفيق الوطنى الذى أصبح بعد ذلك عرفا تقليديا فى مصر وذلك بصرف النظر عن نيات محمد على الحقيقية ، ولكن محمد على خلق أوضاعا اجتماعيا مهينة بالنسبة لأولئك الذين ترتبط حياتهم بالأرض فقد وضع يده على أرض مصر كلها باعتباره المالك الوحيد لها ، ومن ثم أصبح الفلاحون غرباء عن أرضهم التى كانوا يزرعونها .

على انه يرجع الى محمد على – ولا شك – الفضل فى خلق أول جيش مصرى حديث فى الفترة ما بين ١٨٢٠ الى ١٨٣٠ جيش قوامه الفلاحون المصريون لأول مرة منذ أكثر من ألفى سنة . وبلغ عدده أكثر من مائتى ألف جندى ، ولأول مرة منذ أكثر من ألفى سنة قفزت مصر كدولة مستقلة عن غيرها من الدول التى كانت تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية ، دولة وصلت فى مدى خمسين عاما الى أن تصبح قوة فعالة مؤثرة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، واستطاع محمد على أن يلقى الأساس الأول للصناعة والتنظيم الزراعى واستطاع أن يصل بالمنتجات المصرية الى الاسواق الخارجية وشجع زراعة القطن الذى أصبح أضخم مورد للثورة فى مصر ، كما أنه ألقى الأساس لتطوير وسائل الرى فى الوادى .

وعندما تولى سعيد باشا الحكم ، كان ذلك ايذانا ببدء مرحلة جديدة فى حياة مصر الحديثة مرحلة كانت تمهيدا لاخضاعها للحكم الاستعمارى الأوربى . استطاع ديليسبس أن يقنعه بحفر قناة السويس ، وتم حفر القناة بأيدى الفلاحين المصريين الذين دفن الآلاف منهم على ضفافها . ومهد وجود هذه القناة الفرصة للتسلل الأوربى خاصة عندما تولى اسماعيل باشا حكم مصر وأغرق نفسه فى الديون ومهد للقدم الأوربية لتثبيت نفسها فى السياسة الداخلية والخارجية للبلاد .

وعندما خلفه توفيق باشا كانت مصر قد أصبحت بالفعل منطقة نفوذ أوربية الأمر الذى أدى الى ثورة عرابى ٠

التاريخ ٠٠ عام ١٨٨٢ ٠٠ وقد بدأت تظهر بوضـــوح علائم الوعى الوطنى فى البلاد بينما اسماعيل يتسبب بتصرفاته الحمقاء فى أن يتيح للتسلل الأوربى فى شئون مصر الخاصة مما أدى بالتالى الى الغليان الشعبى ضد هذا الاستعمار الجديد الذى بدأ يتطلع الى مصر فى نهم وجشع ، الغليان الذى تمخض فى النهاية عن ثورة عرابى ٠

ولقد دأب المؤرخون الفرنسيون على أن يصفوا ثورة « عرابى » بأنها مجرد دعوة حمقاء للانجليز لكى يقدموا الى مصر ويندخلوا فى شئونها وذلك دون أن يضعوا فى حســابهم التطورات التى أدت الى هذه الثورة الشعبية العسكرية ٠٠ لقـد عانى المصريون كثيرا من تدخل المستشارين الأوربيين فى شئون مصر ، وعانى الجيش المصرى من تسلط الضباط الشراكسة ومن عمليات الفصل المستمرة التى كانوا يعانون منها على آيديهم ٠ ومن ثم ثار « عرابى » والفلاحون على الخديوى توفيق الذى ورث تركة أبيه المثقلة ثم زادها ثقلا على ثقل وفى الفترة مابين فبراير ســنة ١٨٧٩ ويوليو ســنة ١٨٨٢ كان الفلاحون المصريون بقيادة « عرابى » قد أجبروا الخديوى على فصل رئيس الوزراء الأرمنى « نوبار » ثم على نفى وزير الحربية الشركسى « عثمان رفقى » وعلى تشكيل حكومة وطنية برئاسة صديقهم « محمود سامى البارودى » الذى أسند وزارة الحربية الى عرابى نفســـه ٠

ولقد تطورت الأمور بعد ذلك تطورا دراميا ، ودخل الانجليز بقواتهم أرض مصر بعد أن طلب الخديوى المذعور معاونتهم ٠ وانتهى الأمر بعرابى الى النفى فى سيلان ثم عاد سنة ١٩٠٤ ليجد نفسه وقد أصبح فى عالم النسيان ٠٠ وتبقى بعد ذلك ـ للتاريخ ـ الحقيقة

بأن أحمد عرابى كان يمثل فى هذه الفترة وبحق ؛ المتحدث باسم مصر بل ورمزها فى التطلع الى العدالة والكرامة ٠

ولقد تبعت حركة عرابى الثورية حركة فكرية مصرية عارمة ، وضع بذروها جمال الدين الأفغانى وتلاميذه من بعده وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده الذى كان قارئا لكتابات « هربرت سبنسر » ولقد ساعد على هذه الحركة أن مصر كانت من الناحية العملية ـ وحتى من الناحية الجغرافية ـ قد بدأت تتحرك بعيدا عن دائرة الدولة العثمانية ، وان كانت هناك روابط روحية ظلت تربطها « بأمير المؤمنين » حتى كانت حركة كمال أتاتورك التى أطاحت بالخلافة العثمانية وأدت الى الانفصال التام لمصر عن تركيا من الناحية العملية ٠

ولقد كانت حركة الصلة بين مصر وتركيا تقوى أحيانا لدى المثقفين كوسيلةً للاستعانة بتركيا فى صد تيار القوى الأجنبية المعادية للاسلام ٠ على أن ذلك لم يوقف فى ذلك الوقت نمو الحركة « المصرية » التى عبر عنها مصطفى كامل بقوله : « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » ٠ وقد نتج عن هذه الحركة القومية المصرية وجود الصحافة الحديثة بمصر بمختلف اتجاهاتها التى مهد لها « يعقوب صنوع » ، المعروف بـ « أبو نظارة » ، وأديب اسحاق ، وسليم نقاش ، وسليم بشارة تقلا ٠

ولقد كانت الفترة فيما بين ١٨٧٧ ، ١٨٨٠ فترة انتعاش للصحافة المصرية الحديثة أدت الى تحديد المفهوم الوطنى والقومى فى مصر ٠

ولقد كان لوجود الاستعمار الانجليزى فى مصر وتسلطه على مقدرات البلاد أثره الحاسم كذلك فى نمو الحركة القومية المصرية التى ظهرت فى وضوح مع أحداث « دانشواى » التى اهتز لها الضمير

العالمي كما كان له أثره من ناحية أخرى على ظهور الحزبية في مصر ·
ومع نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الحركة الوطنية ـ تقودها الطبقة المتوسطة من المثقفين ـ قد بلغت ذورتها بالأحداث التى أعقبت اعلان « ولسون » وانعقاد عصبة الأمم ومحاولة زعماء الحركة الوطنية أن يحصلوا على اعتراف باستقلال مصر ، ثم كانت أحداث ثورة ١٩ التى كانت بغير شك حركة شعبية رائعة من الممكن أن تؤتى ثمارها لولا النكسات التى أصيبت بها فى أشخاص زعمائها مما كان ايذانا بانتكاس الحركة الوطنية ذاتها التى كانت ممثلة فى ذلك الوقت فى حزب الوفد ·

ولقد تطور حزب الوفد الشعبى بعد ذلك الى أن أصبح حزب كبار الأقطاعيين الذى يستغل الجماهير بشعاراته البراقة الديمقراطية ويدافع فى نفس الوقت عن مصالح هؤلاء الاقطاعيين · وقد استغل الانجليز حزب الوفد استغلالا ناجحا · وشجعوا مع القصر عملية الصراع الحزبى بينه وبين الأحزاب الأخرى فى مصر · وبدأوا يلعبون لعبة المفاوضات التى كانت أشبه بعمليات التخدير لجماهير الشعب ·

وأثناء الحرب العالمية الثانية كانت مصر تعيش فى غليان شعبى مكبوت نتيجة تصرفات السلطات الانجليزية الاستعمارية حتى كانت حركة ٤ فبراير سنة ١٩٤١ التى كشفت النقاب عن حزب الوفد لقبوله الحكم بناء على طلب الانجليز وفصلت جماهير الشعب عن « الملك الشاب » الذى كان الكثيرون يأملون الخير الكثير فى شبابه بعد أن قبل الانذار البريطانى عندما حاصرته الدبابات الانجليزية فى قصره · ولقد كان لهذه الحركة أثرها الحاسم فى تحويل مجرى الحركة الشعبية الثورية فى مصر وفى فقدان المصريين لثقتهم فى الأحزاب وخاصة حزب الوفد الذى كان لا يزال يعتبر آنذاك الحزب الشعبى الأول فى مصر · وبدأت الحركات السرية الثورية تنمو وتزدهر كما بدأت الحركات الارهابية تجد طريقها على مسرح

الأحداث حتى كانت حرب فلسطين التى أثرت تأثيرا مباشرا فى اتجاه الأحداث فى السنوات القليلة التالية والتى كانت دافعا قويا نحو الانتفاضة الثورية التى انطلقت من عقالها فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

يقول المؤلفان الفرنسيان ان بداية الثورة لم تكن يوم ٢٣ يوليو وانما كان هذا التاريخ هو تاريخ نجاحها ، أما بداية الثورة المصرية فى رأيهما فقد كانت بحق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . يوم كانت القاهرة تحترق .

فى الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١ : أعلنت حكومة الوفد انهاء المعاهدة الانجلو مصرية فى محاولة لاستعادة شعبية حزب الوفد ، ولاستعادة ثقة جماهير الشعب . وما أن جاءت نهاية العام نفسه حتى كان الصراع المثلث الأطراف بين الملك والانجليز والوفد قد بدأ يأخذ طابعا دراميا .. وكان واضحا فى هذه الفترة . أن الملك والانجليز معا قد اتحدا ضد حزب الوفد الذى استطاع أن ينهى المعاهدة رغم أنها لم تكن عملية مدروسة على الاطلاق . ولقد لجأ حزب الوفد فى ذلك الوقت الى محاولة استثارة جماهير الشعب ضد قوات الاحتلال فى أسلوب انتهازى لاحراج الملك وتهديد الانجليز الذين استخدموا العنف فى السويس والاسماعيلية لمواجهة الفدائيين المصريين وكانت مذبحة البوليس التى حارب فيها جنود بلوكات النظام ببسالة وليس فى أيديهم سوى البنادق القديمة ـ الدبابات الانجليزية وسقط خمسون قتيلا وأكثر من مائة جريح واجتمعت الوزارة الوفدية فى نفس اليوم وقررت قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا تحت ضغط الشباب الثائر وباتت القاهرة ليلتها تترقب الأحداث .

وفى صباح اليوم التالى خرجت المظاهرات الصاخبة من جامعة القاهرة وانضم اليها مئات من جنود وضباط بلوكات النظام

ومظاهرات أخرى من المدارس ومن الأزهر واتجهت جميعا نحو مبنى رئاسة الوزارة حيث خطب فيهم أحد الوزراء المسئولين واستبقاهم طويلا حتى يخفف من حدة ثورتهم وفى حوالى الساعة العاشرة بدأت القاهرة تحترق ؛ أشعلت النيران فى كازينو أوبرا (بديعة سابقا) ثم ما لبثت الحرائق أن انتشرت فى كل مكان دون أن يتدخل رجال الأمن . ويؤكد الكثيرون أنه فى فترة الظهيرة خرجت جماعات منظمة فى أماكن كثيرة من منطقة وسط القاهرة تنظم عملية الحرائق وتقودها ثم ما لبثت أن اختفت بعد أن أدت مهمتها . ولم يتدخل الجيش الا حوالى الساعة الخامسة والنصف بعد أن أصبح وسط القاهرة شعلة من النيران . وهنا يبرز سؤال : من الذى أحرق القاهرة ؟ هل هى الجماهير الغاضبة أم انها فقط « بدأت » فى ثورة « استغلتها » جهات معينة وتمادت فيها لكى تضرب ضربتها فى سبيل هدف معين؟ كل الجهات المسئولة والأحزاب تنصلت من تبعة احراق القاهرة. على أن شيئا يبقى بعد ذلك . هو أن الملك كان يقيم مأدبة لأكثر من خمسمائة ضابط من ضباط الجيش احتفالا بمولد ولى عهده . هل كان يستبقيهم لكى يحول دون الاستعانة بهم فى التدخل بعد أن وقف البوليس مكتوف الأيدى ؟ مرة أخرى من الذى أوقف البوليس مكتوفى الأيدى .. هل كانت لديه تعليمات بذلك ؟ واذا كانت لديه مثل هذه التعليمات فمن الذى أصدرها ؟ قطعا لا يمكن أن يكون الحزب الحاكم هو الذى أصدر مثل هذه الأوامر لأن حريق القاهرة كان أكبر وآخر ضربة أطاحت به وقصمت ظهره . لقد استغل الملك دون شك هذا الحريق ، ويعتقد الكثيرون أنه كان متفقا عليه مع الانجليز وربما على الأقل استغله معهم بسرعة حيث يؤكد كثيرون من الشهود أن « اخوان الحرية » والجماعة الموالية للانجليز « روبرت فاى » الانجليزى كانت لهم اليد الطولى فى تحقيق ذلك الحادث المؤلم .

المهم أن الملك أقال حكومة الوفد • وبذلك بدأت فترة حاسمة تمر فى حياة مصر والمصريين • لقد فقد الشعب ايمانه بقياداته المهزوزة أو العميلة والانتهازية حيث يقف هو ثابتا منطلقا الى آفاق جديدة وكان واضحا ولا شك أن الجماهير تنتظر أحداثا بدا وكأنها لابد أن تتحقق • وانها تتطلع الى شيء جديد ولكنها لا تعلم من أين ولا كيف يتحقق هذا الشيء الجديد • الجماهير اذن معبأة معنويا لتقبل شيء جديد : شيء بعيد عن طابع الأحزاب والقيادات السياسية الغضة القديمة ولقد حدث هذا الشيء صبيحة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ •

كيف حدث ؟

هل كانت له مقدمات ؟

نمضى مع الكاتبين الزوجين الفرنسيين فى حديثهما عن الثورة نفسها ، عن حركة الضباط الأحرار ، عن أحداث النواة الأولى لهذه الثورة ، عن بناء الدولة التى حققها « ناصر » ، عن دبلوماسية الأمم الصغيرة ، عن الأحزاب السياسية ، ثم عن الاتجاهات الثورية لثورة ٢٣ يوليو •• وأخيرا عند تقييمها لهذه النورة من وجهة نظرهما الخاصة • كل ذلك فى الجزء الثانى من الكتاب الذى جعلا عنوانه « جمهورية الضباط الأحرار » •

كانت طبيعة الأحداث قبل ٢٣ يوليو تنبىء ولا شك بأن شيئا ما لابد أن يحدث ، وكان حريق القاهرة فاتحة هذه الأحداث التى كانت دليلا على الغليان الشعبى الذى تحررت به البلاد • ولقد حدث فى خلال عام واحد (١٩٥١) أكثر من ثورة للفلاحين أنفسهم فى أرض البدراوى عاشور والأمير محمد على والأمير يوسف كمال • بل وفى اقطاعيات الملك نفسه فى انشاص • وكلها أخمدت بالنار وسقط عشرات الفلاحين برصاص السلطات الحاكمة • حتى الأمراء أنفسهم كانوا ينتقدون تصرفات الملك وان كان نقدهم موجها اليه

بصفة عامة . لأنه تزوج بفتاة من الطبقة المتوسطة كانت مخطوبة لأحد الدبلوماسيين من قبل . وكانت أخبار رحلات الملك فى أوروبا تصل الى مصر بكل ما فيها من مخاز واستهتار . وفى ٢٢ يونيو أقال الملك حكومة الهلالى وكلف حسين سرى بتأليفها . واقترح الملك عليه أن يعين الفريق سرى عامر فى منصب وزير الحربية رغم كره ضباط الجيش له . وحذره حسين سرى من مغبة هذا التصرف ، ولكن الملك أصر على موقفه فاستقال حسين سرى وأسند الملك الوزارة مرة أخرى الى نجيب الهلالى فى ٢١ يوليو ، كما أسند وزارة الحربية الى صهره اسماعيل شيرين . وكان واضحا من تصرفات الملك أنه يصر على أن يعبث كما يشاء بالحكم وبالوزراء الخائفين وبكل مقدرات البلاد ، ولكن ذلك اليوم ، يوم ٢٢ يوليو كان يمهد لأحداث عظيمة .

ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

فى الخامسة من مساء يوم ٢٢يوليو وبينما كان الملك السمين ينعش نفسه بحمام فى قصره برأس التين ، كان هناك ثمانية من الضباط الشبان يجتمعون فى منزل صغير بمنشية البكرى وكان واحد منهم يقرأ مذكرة من ست صفحات هى خطة الثورة التى أعدوا لها طويلا من قبل . وفى السادسة مساء كان الهلالى يجتمع بوزرائه فى المنتزه ، بينما تفرق الضباط الثمانية ليبدأوا عملهم فى حوالى العاشرة مساء . وفى منتصف الليل وبينما كانت الأميرة فوزية شقيقة الملك تلهو وترقص فى (الرومانس) مع سكرتير السفير الأمريكى كان ضابطان من الثمانية يقتحمان بقواتهما مقر قيادة الجيش ويستوليان عليه . وفى الواحدة والنصف وبينما كانت الأميرة الملكية لا تزال ترقص وحولها مجموعة من الصحفيين ، كان سبعة رجال فى القاهرة يستولون على الاذاعة . وفى الرابعة صباحا كان مجلس قيادة الثورة يجتمع فى قيادة الجيش فى نفس اللحظات التى كانت الأميرة وصديقها

الأمريكي يغادران فيها ملهى الرومانس . ومع بشائر فجر ٢٣ يوليو كان « الشيء الذى تنتظره الجماهير » قد حدث ولكن من هـذا الذى حقق هذا الشيء ؟ ، هذا الأمل الذى كانت جماهير الشعب المصرى تهفو اليه .

فى سنة ١٩٣٨ تخرجت دفعة من الكلية الحربية بالعباسية تحمل رتبة الملازم الثانى ومن بين ضباط هذه الدفعة كان جمال عبد الناصر حسين وآخرون ... كانوا يجلسون على قمة جبل شريف بمنقباد وتعاهدوا معا على أن يفعلوا كل شيء ممكن من أجل تخليص البلاد من قوات الاحتلال الأجنبى ومن أجل اعادة بناء الجيش والدولة . وفى سنة ١٩٣٩ افترق جمال عبد الناصر وانتقل الى الاسكندرية ثم نقل مرة ثانية الى منطقة غـرب العـلمين حيث تعـرف على الصاغ وجيه خليل الثائر على الانجليز والذى استشهد فى حرب فلسطين .

ولقد أدى حادث فبراير سنة ١٩٤٢ الى خلق عدد من الضباط الشبان الثائرين ، الى النواة الأولى لمجموعة ضباط « ناصر » وكانت الفترة ما بين سنة ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ فترة دراسة وتحصيل ومناقشات بالنسبة لهؤلاء الضباط حتى كانت حرب فلسطين وحاول جمـال عبد الناصر أن يسـتقيل ويلحق بالفـدائيين الذين كانوا يتدربون ويجتمعون فى دمشق ولكن استقالته رفضت بينما نجح بعض زملائه فى أن يعملوا مع المتطوعين . حتى دخلت مصر الحرب رسميا وأتيح لعبد الناصر أن يحارب فى فلسطين .

ثم كانت الأحـداث المؤلفة لحرب فلسـطين التى تركت آثارا لا تمحى فى قلوب الضـباط الأحـرار والتى أضيفت الى الأوضاع المهنية فى مصر ذاتها . وكلها أدت الى اشعال جذوة الثورة فى نفوس هؤلاء الضباط الشبان الذين كان عبد الناصر بالنسبة لهم « صمام الأمان » عندما ينزع بعضهم الى محاولة اللجوء الى العنف والارهاب.

وفضل عبد الناصر أن يلجأ الى العمل السرى ، يفضح كبار المسئولين عن فساد الجيش ، وكذلك المسئولين فى الحكم وعلى رأسهم الملك بواسطة « صوت الضباط الأحرار » النشرة السرية التى كان يحررها مع زملائه ويغمرون بها قيادات الجيش ويبعثون بها الى الصحف وكانت بعض هذه الصحف مثل « روز اليوسف » تنشر المعلومات التى ترد فى هذه النشرة وخاصة تلك الخاصة بصفقات الأسلحة الفاسدة ٠

ثم كانت أزمة انتخابات نادى الضباط التى أسفرت عن حل الملك لمجلس الادارة المنتخب فى سنة ١٩٥٢ بعد نجاح قائمة الضباط الأحرار وكشفت هذه الأزمة أمرين : ان حركة الضباط الأحرار قد استطاعت أن تلف حولها روحيا ـ الجانب الأكبر ـ من ضباط الجيش الشبان ، وان السلطات الحاكمة قد بدأت تحس بوجود شيء ما داخل صفوف الجيش الأمر الذى من أجله أصر الملك على تعيين سرى عامر وزيرا للحربية لكى يقوم بعملية تصفية وتطهير ٠ وعندما هدده حسين سرى بالاستقالة أسند الوزارة الى الهلالى كما سبق أن أوضحنا وأسند وزارة الحربية الى صهره لنفس الغرض مع ابقاء « سرى عامر » فى قيادة الجيش ٠

ولقد كان مقررا لحركة الضباط الأحرار أن تتم فى شهر أغسطس ولكن جمال عبد الناصر رأى أنه من الحكمة والضرورة فى ذات الوقت أن يتم كل شيء فى فجر ٢٣ يوليو لكى يضرب ضربته قبل أن يتمكن أعداء الشعب من الاستعداد لمواجهة الموقف ٠ وكانت الثورة : الثورة التى قلبت كل شيء فى المنطقة جعلت المسئولين فى المخابرات الانجليزية بالذات يضربون كفا بكف ويقفون فى ذهول وحيرة كيف حدث؟ انهم لم يعرفوا شيئا عن هذه الحركة بينما المفروض فيهم أنهم كانوا يعرفون من أسرار الجيش المصرى أكثر مما يعرفه قادته أنفسهم ؟ ٠

وتدل أحداث الأيام الأولى للثورة أو قبل الأيام الثلاثة على وجه التحديد على مدى ما يتمتع به عبد الناصر من بعد نظر ومن قدرة على تكييف الأمور ومن عبقرية فى التكتيك «منقطعة النظير» ، أن قصة طرد الملك وحدها فى هذه الأيام الثلاثة تكفى وحدها لتأكيد ذلك ، فقد كان عبد النـاصر فى ذلك ذكيـا بارعا فى وقت كانت القـوات الانجليزية فيه على بعد تسعين كيلو مترا فقط من القاهرة ومع ذلك فقد أجبر الملك على التنازل عن عرشه وأجبره على مغادرة البلاد ، تمهيدا لما أتبع ذلك من خطوات حاسمة ٠

تم أذن طرد الملك ، وبدأت الأحزاب القديمة تستعد للاستئثار (بالتركة) ٠ بعضها حاول فى انتهازية السياسيين القدامى أن يستغل الثورة ، وبعضها الآخر حاول فى بلاهة أن يتبنى هذه الثورة أو أن يفرض وصايته عليها ٠

وكان واضحا أن هذه الأحزاب جميعا تتمنى أن تكون حـركة الضباط الأحرار مجرد عملية لتغيير الوجوه فى الجيش فحسب ، وكان على الثورة فى أيامها الأولى أن تتمهل قليلا حتى تتبين مواضع أقدامها ، وحتى تكشف هذه الأحزاب نهائيا أمام جماهير الشعب ٠ وجاءت الفرصة فى شكل قانون الاصلاح الزراعى الذى أصر مجلس قيـادة الثورة على تنفيذه وخاصة بعد أن رفضت الأحزاب نداء قيادة الثورة بتطهير نفسها ٠ وتم تنفيذ القـانون رغم محاولات الأحزاب التى انكشفت تماما أمام الجماهير ٠

وكان على الثورة أيضا فى أيامها الأولى أن تكون حازمة فى مجال الحكم حتى لا تتيح الفرصة ـ أو الأمل فى فرصـة ـ أمام محترفى السياسة لكى يعطلوا سيرها الطبيعى نحو إصلاح ما أفسد حكم عشرات السـنين التى مضت ٠ فعنـدما حاول البعض أن يلعبوا بالنـار فى (كفر الدوار) كانت الثـورة حاسمة ٠ وعنـدما حاول الاقطاعيون

(عدلى للوم) أن يقفوا فى وجه قانون الاصلاح الزراعى كانت الثورة أيضا حاسمة ·

وأخيرا ـ وقبل أن تمضى الثورة فى طريقها الثورى ـ كان لابد أن تلغى الأحزاب جميعها فى ١٩ يناير سنة ١٩٥٣ وأن تصادر أموالها لمصلحة الشعب وأن نبدأ عملية مرحلية فى العمل السياسى الجماهيرى بانشاء « هيئة التحرير » فى ٢٣ من الشهر نفسه وباعلان الدستور المؤقت لحكم البلاد ثم باعلان الجمهورية وانهاء الملكية فى يونيو سنة ١٩٥٣ حيث وقفت الجماهير تردد خلف (جمال عبد الناصر) وهى تراه فى الطليعة لأول مرة بعد الثورة « القسم الجمهورى » ·· يومها رأت فيه الجماهير ذلك الشاب الأسمر الفارع الطول ذا النبرات الهادئة العميقة والأنف المتميز والعينين اللامعتين الطيبتين ، رأت فيه الثائر .. صانع التاريخ ؟ .

وجاءت أحداث مارس سنة ١٩٥٤ وبدا واضحا أن (جمال عبد الناصر) لا يريد أن تكون الثورة « بالاسم » فحسب ، وانما يريدها « ثورة » حقيقية لا مجال فيها للانتهازية والتسلق ·· ثورة تحقق ما تطلعت اليه طويلا جماهير الشعب وتبعد محترفى السياسة عن ان يعودوا مرة أخرى ليتسلطوا على مقدرات البلاد مرة ثانية تحت شعارات الديمقراطية والحياة البرلمانية وهم أول من أفسدها فى مصر ·

ولقد مرت بعبد الناصر فى هذه الفترة الحاسمة من حياة الثورة لحظات حرجة أثبت فيها مقدرته الفائقة على القيادة والتنظيم كما أثبت كذلك قدرته الفائقة وعبقريته السياسية الفذة فى مواجهة مختلف التيارات المحلية ، الرأسمالية .. والرجعية .. بجميع أشكالها ، تلك التى كادت تعصف بالثورة فى سنتها الثانية ، واستطاع بعقلية المحارب الحذر أن يكشف هذه الجبهات جميعا

فى وقت كان فيه أكثر الناس تفاؤلا يحسبون للثـــورة أيامهـا المعدودة الأخيرة .

وما ان استطاع عبد الناصر « بالنورة » كأقوى مما كانت حتى بدأ يتابع ضرباته المنتصرة ليمهد الطريق نحو بنـــاء الدولة القوية الجـديدة ٠

كان عبـــد الناصر قد استطاع أن يجبر الانجليز على توقيع معاهدة تنص على جلائهم عن أرض مصر بتحفظات كان من الواضـح أنها لا تعنى أكثر من حفظ ماء وجه الامبراطورية المتداعية ٠ كمـــا استطاع أن يحقق للسودانيين حق الاختيار بين الاتحاد والاستقلال٠ وأصر على ضرورة جلاء القوات البريطانية عن السودان حتى قبل أن تجلو عن أرض مصر نفسها ٠٠ ولقد مرت فترات عصيبة فى تاريخ العلاقات بين مصر والسودان فى تلك الفترة الحاسمة الحرجة أظهرت كفاية عبد الناصر فى مواجهتها ٠

ولقد كان نجاح عبد الناصر فى جلاء الانجليز عن مصر وسيلة فى حد ذاته (لكى يوجه طاقات المصريين بعيدا عن العدو التقليدى ٠٠ الى مشاكل البلاد الحقيقية ـ الفقر والتخلف الاجتماعى ـ الى ايجاد حلول لمشاكل التمدين والتصنيع ،) وكان من الممكن بعد ذلك أن تتحسن العلاقات بين عبد الناصر والغرب (وقد تحسنت بالفعـل لفترة قصيرة) ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا وذلك عنـدما وقعت معاهدة حلف بغداد فى محاولة من انجلترا وتركيا لجر البلاد العربية فيما أسموه (حلفا ضد الشيوعية) تسنده الولايات المتحدة ٠٠ وبدأ عبد الناصر حربا جديدة مع الغرب ممثلا فى حلف بغداد حيث أعلن رفضه له وهاجمه فى قسوة ودون هوادة وتوترت العلاقات منذ ذلك الوقت بين مصر وبريطانيا توترا وصل الى ذروته فى أحداث العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ٠

وليس من شك فى أن تتابع الأحداث بالنسبة لصلات مصر بالخارج كان مفروضا على عبد الناصر فرضا • وليس من شك أيضا أنه كان مضطرا الى مواجهتها رغم حاجته الشديدة الى التفرغ لمشاكل مصر الداخلية التى تحتاج الى حلول جذرية •

على أنه من الانصـاف لعبـد الناصر أن نقرر أنه كان يرغب مخلصا فى تحسين علاقاته مع الغرب ولكن الأحداث أرغمته على أن يسلك عكس ذلك •

بالنسبة للانجليز مثلا ، فقد كان حلف بغداد نموذجا لمحاولة تسلل استعمارى جديد يفرض وصايته على الشرق الأوسط ويجره بعجلة بريطانيا .. وبالنسبة لأمريكا . فان رفضها بيع الأسلحة لمصر بعد تعرضها لعدوان متكرر من العصابات الاسرائيلية ١٩٥٥ ، ثم سحبها لمشروع اسـهامها فى بنـاء السد العالى • كان دافعا لعبد الناصر الى شراء الأسـلحة من الكتلة الشرقية والى تأميم قناة السويس ، رغم أن مصر كانت قد وقعت مع الولايات المتحدة أكثر من اتفاق فى مجالات الاقتصاد والثقافة والخبرات الفنية ، ورغم أن « دالاس » أكد أكثر من مرة « أن مصر الآن على عتبات مستقبل عظيم » •

ولقد كان واضحا أن أمريكا تريد فى مجال التعاون مع مصر أن تجبرها أولا على الاشتراك فى حلف بغداد مقابل منحها الأسلحة التى طلبتها وأن تفرض ثانيـا رقابتها على الاقتصاد المصرى مقابل مساهمتها فى بناء السد العالى وكلا الأمرين رفضهما عبـد الناصر بشـدة •

تجىء بعد ذلك العـلاقات مع فرنسـا ، وقد توترت لاصرار عبد الناصر على تأييد الثورة الجزائرية التى اندلعت سنة ١٩٥٤ ، وعلى تأييده للحركات الوطنية فى كل من تونس والمغرب • وكثيرا

ما عرضت فرنسا كافة الخدمات على عبد الناصر مقابل تركه لها حرية اليدين فى الجزائر ، على أمل أن عبد الناصر سوف يقبل ذلك ، ولكن فرنسا نفضت عنها ذلك الأمل فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ ، وعادت تفكر فى الحروب الصليبية حروب القرون الوسطى ٠٠٠٠ « ينبغى أن يسقط صلاح الدين الجديد » ٠

توتر العلاقات اذن بين مصر والغرب كان شـــيئا لا بد أن يحدث ، وكان لا بد لعبد الناصر أن يخوض مع الدول الغربية جولة اثر جولة مما عطله ، ولا شك ـ شيئا ما ـ عن حلول سريعة لمشاكل مصر الداخلية ٠ كما أن اسرائيل كان لها ضلع آخر فى ذات المجال، لقد كان اتفاق الجلاء عن مصر بالنسبة لاسرائيل أمرا مزعجا للغاية٠ فقد كانت القوات الانجليزية فى منطقة القناة تشكل ـ الى حد ما ـ حاجزا بين مصر واسرائيل ٠ ثم جاء فى أعقاب ذلك حادث السـفينة الاسرائيلية (بات جاليم) التى أطلق طاقمها الرصاص على الصيادين المصريين فقتلوا منهم اثنين ، وحادث وكر التجسس الاسرائيلى الذى كشفته السلطات المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ والذى كان يهدف الى تخريب بعض المنشآت الأجنبية (الأمريكية بالذات) والقاء تبعة التخريب على المصريين ، ثم كانت الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على غزة وخان يونس والصبحة الأمر الذى دفع عبد الناصر الى ضرورة خرق مبدأ احتكار السلاح الذى فرضته دول الغرب على المنطقة ٠

كذلك فان العدوان الثلاثى نفسه كان نتيجة مباشرة لهـذه الأحداث جميعا ٠ لجأت اليه انجلترا وفرنسا واسرائيل وكل منهـا مدفوع بدوافع معينة ٠ وفى نفس العام الذى حدث فيه العدوان كان عبد الناصر يرسم خط مرحلة جديدة فى التنظيم السياسى الجماهيرى بتكوين الاتحاد القومى تمهيدا للسير بالجماهير نحو (رقابة على العمل السياسى) فى صورة جماعية بعد أن كانت الديمقراطية فى مصر لا تعدو أن تكون منحة من الاقطاعيين ملاك الأرض باذن من الملك ٠

وكان من الممكن ألا يتعطل سير (الثورة) فى كل الميادين لولا العدوان الثلاثى الذى وقع فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ ·

على أن الثورة لم تغفل على أية حال عن أنها « ثورة » حتى فى الفترة ما بين عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٧ · تكشف عن هـــذا اتجاهــات واجراءات كثيرة ·

ولقد تابع الكاتبان الفرنســيان (جان وسيمون لاكتور) دراستهما فى الفصل الثانى من الكتاب الذى جعلا عنوانه « جمهورية الضباط الأحرار » وقد وقفنا فى دراستنا عند الجزء الذى أشار فيه الى أن ثورة ٢٣ يوليو كان لها من الاتجاهات ما يؤكد ثوريتها حتى فى المدة ما بين عامى ١٩٥٢ ـ ١٩٥٧ ورغم مختلف الظروف العصبية التى مرت بعبــد الناصر وحصر فى الجزء الأخير من هــذا الفصل ، فيتحدث الكاتبان عن الاتجاهات الثورية فى « ثورة ٢٣ يوليــو » ويضعانها فى الميزان لتقييمها ·

وينبغى أن نشير هنا الى أن الكتاب الذى صدر بعد الاضافات فى عــام ١٩٥٨ ، لم يدرك مؤلفاه تلك الفترة الحاســمة من الناحية الثورية الاجتماعية التى سارت فيها مصر أشواطا بعيدة فى تطبيق الاشتراكية القائمة على الدراسة والموضوعية والمتمشية مع تاريخنا وواقعنا · والتى تمارس « التجربة » بجرأة وانطلاق · وسنرى الآن الى أى مدى كان الكاتبان موفقين فى تقييم ثورة ٢٣ يوليو · وربما طرحنا فى نهاية هـــذه الصفحة سؤالا هل يغير الكاتبان من بعض آرائهما فى الثورة اذا فكرا فى مزيد من الاضافات يصدران بعدها كتابهما للمرة الثالثة ·

كثيرون ممن كتبوا عن الثورة المصرية التى اندلعت فى ٢٣ يوليو مالوا الى أن يصفوها بالثورة « البراجماتية » القائمة فى مجال التطبيق العملى على أساس التجربة التى تخطىء وتصيب ولكنها

لا تفقد هدفها فى النهاية والكاتبان « جان وسيمون لاكتور » يميلان أيضا الى أن يأخذا بهذا الوصف فى مجال تقييمهما لثورة ٢٣ يوليو . على أنه يؤخذ عليهما فى نقاط غير قليلة من دراستهما لهذه الثورة أنهما رغم التحليل الصائب فى كثير من الأحيان فانهما لا يحاولان أن يعرضا وجهة نظر الثورة نفسها ، ويغفلان حقيقة هامة وكبيرة هى أن النظريات السياسية الغربية ومفاهيمها عن الديمقراطية والاشتراكية وغيرها من الأيديولوجيات لا يمكن أن تصلح كما هى فى أقطار نامية فرض عليها الاستعمار التخلف وفرض عليها واقع الثورة أن تعوض مئـات السنين فى بضع سنين فقط . مثال ذلك أنهما يبدآن هذا الجزء بقولهما هل الثورة المصرية ترقى الى مستوى تغيير جذرى فى البناءين السياسى والاجتماعى ؟، الى تغيير أصيل للثورة أو الى نقل القوة من طبقة الى أخرى ؟ هل هناك تغيير عميق فى طرق حياة الناس وسلوكهم وفى علاقات بعضهم بالبعض أو علاقاتهم بغيرهم ؟ هل تغيير شكل الميزان الداخلى للبلاد أو الوضع الدولى لها أو النظرة الشاملة لمستقبل مصر هل هى ثورة .. أو لا ثورة ؟

ونحن مع الكاتبين أساسا فى أن كل هذه « المقومات » التى وردت فى عباراتهما هى التى تشكل حقا .. طبيعة الثورة .. نحن معها فى هـــذا .. ولكن اذا كان الكاتبان يقيســان أفعــال الثورة بمقاييس الأيديولوجية الغربية وحدها كما فعلا فى بعض الحالات فان المقياس أن يتلاءم مع طبيعة « أحجامنا وأبعادنا » ولكن لماذا نسبق الأحداث ، أقصــد السطور .. لنعرض ما كتبه المؤلفان فى هـــذا الصــدد .

فى مجال « عصب الثورة » يحاول الكاتبان عبثا أن يثبتا أن ثورة ٢٣ يوليو لم تكن يوم قامت ثورة جماهيرية ، وهنا يقع الكاتبان

فى أول خطأ فى القياس . ألكى تكون ثورة جماهير ينبغى أن تكون « الجماهير » نفسها هى التى حاصرت مبنى قيادة الجيش فى فجر ٢٣ يوليـــو وهى التى احتلت المرافق والجســور وهى التى احتلت دار الاذاعة وهى التى وجهت الانذار الى الملك الطاغية وطردته ؟ .. ان المؤلفين قبل ذلك بسطور يشــيران الى ثورة « كرومويل » فى انجلترا ، والثورة الفرنسية ، والثورة الروسية . ويبدو أنهما نسيا أن ثورة كرومويل كانت ثورة جيش تسنده الجماهير . هل يعنى هذا أن الثورة .. لكى تكون « ثورة حقيقية » ينبغى أن تكون صورة طبق الأصل من ثورة كرومويل أو الثورتين الروسية والفرنسية ؟ .

فى ســـنة ١٦٤٨ أو ١٧٨٩ أو حتى فى ســنة ١٩١٩ كانت الجماهير عندما تثور تمسك بأيديها تقريبا بمثل نفس البنادق ذات الطلقة الواحدة التى يتسلح بها الطغاة . أما فى ســنة ١٩٥٢ فقد تغير وجه الأرض وتغير السلاح ولم يعد فى مقدور الجماهير أن تتسلح بالطائرات النفـاثة والدبابات والمدفعية الثقيلة الكفيلة بأن تمزق جموعها فى لحظـات . كل ما كانت تســتطيعه الجماهير أن تنتفض انتفاضة اثر أخرى يقع عشرات ومئات من الضحايا بسببها ، وقد انتفضت جماهير مصر أكثر من انتفاضة ، ثارت أيام « صدقى - بيفن » وثارت أيام « فدائى القنال » وثارت قبل ذلك وبعد ذلك بكل جموعها ، طلبة مثقفين ، عمالا وفلاحين ، ولكن الطاغية كان بيــده الجيش . ما الذى كان ينبغى أن يحدث بعد ذلك ؟ .. هل تسكت الجماهير حتى توضع بيدها نفس أسلحة الجيش ؟ .. واذا كان الجيش نفسه هو الذى يفتح الطريق ، وهو الذى يضرب باسم الجماهير ، وهو الذى يتحول الى الطاغية بدلا من أن يحميه ، هل يكون هــذا العمل شيئا آخر غير الثورة ؟ .

ان ثورة ٢٣ يوليو كانت ثورة الجماهير التى عجزت « ماديا » أن تحقـق الهدف من ثورتها ، ثم جاء الجيش ، القوة المسلحة ..

القادرة ماديا ، فأدى نفس المهمة التى كانت الجماهير تتطلع اليها ٠٠ هذه واحدة، ومن ناحية أخرى : من هم أولئك الذين ثاروا من صفوف الجيش ؟ ٠٠ هل كانوا يمثلون الرأسمالية أو الاقطاعية أو الرأسمالية المصرية ؟ ٠٠ أم كانوا يمثلون ٩٩ ٪ هى مجموع الجماهير الكادحة ٠٠ الثائرة أبدا من قبل ؟ الجواب : على لسان الكاتبين حين يقرران فى صدق — يحمد لهما — « كان قادة الثورة رجالا من المواطنين من أبناء الأرض ، رجالا بسطاء سليمى الطـوية من عائلات أضناها التعب ، رجالا يؤمنـون بالله ، لا يثقـون بالغريب ، وان كانوا يفتحـون له صدورهم بكرم المصريين التقليدى ، وأهم من ذلك كله ، كانوا مصريين من أبناء ضفتى النيل » ٠

والحق أن المؤلفين لم يكونا مغرضين فى التساؤل الذى صدرا به هذا الجزء من الدراسة ، يبدو ذلك واضحا فى أنهما كانا يردان على هذا التساؤل دون أن يدركا أنهما قد فعلا ذلك ، وانما يكمن الخطأ فى هذا الصدد فى أنهما اتخذا « وحدات للقياس » غريبة عن روح العصر ، وروح المنطقة ذاتها ، وبعيدة عن منطق التطور السريع فى العالم من حولهما ٠

مثال ذلك أيضا ، أنهما يشيران فى تساؤلهما الى « انتقـال القوة من طبقة الى أخرى » دون أن يحددا مفهوم ما يقصدانه بهـذا « الانتقال » ٠

أما من ناحية الثورة ، فقد حدث هذا الانتقال بالفعل بمجرد طرد الملك ومرة أخرى تأكد هذا الانتقال مع قانون الاصلاح الزراعى ومع القضاء على محترفى السياسة ٠ كل هذا أدى الى انتقال القوة الى « الجماهير صاحبة الحق الطبيعى فى هذه القوة » ٠

والمؤلفان يؤكدان أن « عبد الناصر » قد حرر — ولا شـك — المصريين من الركوع ، لم يعد هناك ملك ٠٠ لم يعد هناك باشوات٠

أكثر من هذا وأهم « ان الثورة أنهت بالتـــأكيد كل ما كان للطبقة الاقطاعية من تأثير في مجال السياسة » • هـــذا هو ردنا بل رد المؤلف نفسه على تساؤله • أما اذا كان القصد منه أن يعقد مقارنة جريا على مقاييسه بين ثورة مصر وثورة ١٩١٨ في روســيا • فان الثورة المصرية ، لم تكن ثورة طبقة تريد أن تستأثر بالسلطة ، ولكنها كانت ثورة اذابة الطبقات والتقريب بينها مع القضاء على الاقطـاع والرأسمالية المستغلة • وقد حققت ذلك بالفعل حتى في الفترة مابين ١٩٥٢ ــ ١٩٥٨ التى أصدر الكاتبان في نهايتها كتابهما ولقد ناقش الكاتبان بالفعل في هذا الصـــدد قانون الاصلاح الزراعى كنموذج للعمل الثورى •

وقد وصفاه بقولهما :

« ان هذا القانون لا يزال في طريقه ، ويطبق في بطء ، ولكن في ثبات وأسلوب بالغ الأثر • لقد أثبت هذا القانون أثره البالغ في المجال السياسى والاجتماعى ، لأنه فتح أبواب المستقبل للفلاحين لرفع مستوى معيشتهم ويرجى منه أن يؤدى الى تحويل الرأسمال المصرى الى الصناعة بتحرير العقلية المصرية من جنون الرغبـة في تمليك الأرض » •

ويتابع الكاتبان الفرنسيان عرضهما للانجازات الثـورية التى حققتها ثورة ٢٣ يوليو حتى نهاية عام ١٩٥٨ في محاولتهما تقييم هذه الثورة •

وقد أنهى الكاتبان الجزء الذى تحدثا فيه عن انجازات الثورة بقولهما ــ ومرة أخرى ينبه القـــارىء الى أن تاريخ صــدور الكتاب باضافته عام ١٩٥٨ ــ « ان وصفنا للجمهورية المصرية يقودنا الى أن نؤكد أنها مرحلة من الثورة وأنها زحف دائب واعادة لبنـاء الدولة مرحلة في رحلة طويلة شاقة » •

ان الكاتبين يؤكدان أن ثورة ٢٣ يوليو قد نقلت جانبا كبيرا من أبناء الشعب من مرحلة السلبية الى مرحلة الحكم على الأشياء ، لأنها أوضحت لهم فى جلاء « أن عهد الأحلام قد انتهى » • ذلك أن هذه الثورة قد بدأت ـ منذ أن حققت قانون الاصــلاح الزراعى فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ ـ فى دفع عجلة البنــاء فى قوة وفى اصرار • ألغت الوقف الأهلى وخفضت ايجارات الأرض الزراعية وأسعار المواد الغذائية وقدمت للعمال فرص التنظيم النقابى السليم ، كما بدأت الثورة تحقق انجازات سريعة فى ميادين التعمير والانشاء • أقامت وحدات للخدمات الاجتماعية فى كل مكان ، وبنت المدارس فى القرى، ووفرت المياه النقية عبر أنابيب داخل القرى لملايين الفلاحين، وشقت الطرق الحديثة والجسور على ضفتى النيل وغير ذلك من الانجازات التقدمية الهامة •

على أنه فى مجال تغيير « الانسان » أو « الفرد » المصرى فان التقدم فى رأى الكاتبين بطىء ، وهما يقرران فى صراحة ، أن هذا ليس ذنب الثورة بقدر ما هو ذنب عشرات السنين التى مضت فى حكم فاسد متعفن • وعلى أى حال فان الثورة المصرية لم تنجح ـ كما يقول الكاتبان ـ الى مثل ما فعلته الثورة الصينية مثلا عندما أجبرت ستمائة مليون من البشر على أن يرتدوا نفس الزى ذى الياقات العالية ؛ ولكنها تمضى حثيثا نحو تغيير أوضاع المواطنين البسطاء وخاصة من الفلاحين وما على المرء الا أن يزور القرى التى مستها عصا قوانين الاصلاح الزراعى لكى يلمس بنفسه الفرق بين القرية المصرية التقليدية التى تعيش فى أوضاع بالغة السوء وبين القرى التى يسكنها فلاحون بدت على وجوههم ربما لأول مرة فى التاريخ أمارات الصحة دون أن ترى أطفالا يغطى الذباب عيونهم الرمداء ، ولكنك سترى نساء القرية يرتدين ملابس جديدة وسترى كل شىء قد تغير بصورة واضحة ولو أنك زرت مثلا « مديرية التحرير » فسوف ترى نموذجا

للمجتمع الزراعى الجديد التى تتطلع الثورة الى مثله فى كل قرية من قرى مصر ٠

ولقد بدأت الثورة بالفعل فى نقل مصادر الانتاج الى آيدى الدولة ، ولو أننا تركنا جانبا مصادر الانتاج الصناعى ، فان ماحدث فى هذا الصدد بالنسبة لمصادر الانتاج الزراعى « الأرض » يعتبر فى حقيقته المدخل الى ثورة حقيقية ٠ فان الاقطاع الزراعى الذى كان يتمثل فى ثلاثمائة أسرة من كبار الملاك قد تلقى ضربة قاصمة من الثورة التى وضعت نصب عينيها عند تطبيق قانون الاصلاح الزراعى أحداث انقلاب اقتصادى يشجع التصنيع ويقضى على اعتماد البلاد الكلى من اقتصادياتها على الانتاج الزراعى وحده ٠٠ هذا اذا طرحنا جانبا الدوافع الاجتماعية والسياسية الأخرى لهذا القانون ٠

كما أن الثورة جرت شوطا بعيدا فى سياسة التمصير التى تهدف الى رد ثروات البلاد الى أبنائها : شوطا كانت قمته تأميم قناة السويس . ثم كان العدوان الثلاثى « الأحمق » الذى دفع الثورة دفعا الى مزيد من التمصير والتأميم لصالح الشعب . كما أن الثورة قد اهتمت بالتعليم الجامعى اهتماما فائقا الى جانب اهتمامها بالتعليم بوجه عام وعلى مختلف مستوياته وخاصة المراحل الأولى منه ، بعد تحريم تشغيل الأطفال الصغار ٠ وذلك ليقين الثورة بمدى أهمية العلم فى المجتمع الجديد الذى تتطلع الثورة الى تحقيقه ، فان الثورة قد اهتمت بأوضاع المرأة فى هذا المجتمع ٠ فقد أتاحت لها من الانتخاب والترشيح عند اعلان الدستور سنة ١٩٥٦ ، كما انها تبحث عدة قوانين تكفل حقوق المرأة المصرية وكرامتها فى المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق . وبرزت المرأة فى ميدان العمل ، فى كل مجال ٠ لقد أصبح عدد الطالبات فى بعض الكليات يفوق عدد الطلبة . وبدات آراء الفتيات المصريات تتغير مع رياح التغيير فى المجتمع ٠ وان كان الطابع

الشرقى المتحفظ لا يزال يطبعها الى حد ما ، مثلها مثل نساء البحر الأبيض المتوسط فى صقلية واليونان وأسبانيا مثلا . والمرأة المتزوجة فى مصر — عموما — تتمتع باحترام شديد كربة بيت .

على أنه من عيوب المجتمع المصرى — كما يرى المؤلفان — والتى تحاربها الثورة بشدة والتى كانت متأصلة في ذلك المجتمع مئات السنين ، فساد الأداة الوظيفية وتميزها بالطابع الاستبدادى البيروقراطى • ولقد أولت الثورة هذا الجانب من جوانب المجتمع المصرى اهتمامها وبدأت تغير من الميزان فى ميدان العمل وتفتح ميادين جديدة للشباب للعمل فى غير الميدان الوظيفى • ولقد حرص جمال عبد الناصر منذ البداية (على أن يبث العزة والكرامة فى نفوس المصريين وينقلهم من المجتمع الذى تعود أن يحترم « الباشا والبك » عندما قال : « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستبداد » • وبدأ المصريون بالفعل يرفعون رءوسهم وحلت كلمة « السيد » لكى تكون صفة لكل مواطن صغير أو كبير . كما بدأت الثورة — وهذا أمر فى غاية الأهمية — تشجع الحكم المحلى واللامركزية التى كانت ضرورية بتعويد المصريين على تحمل المسئولية والمشاركة فيها وعلى رفع عجلة البناء والتطور بسرعة تعوض ما فات من تخلف . فى الماضى كان مجرد انقطاع الاتصال التليفونى بين القرية والمركز مثلا يفصل الاثنين عن بعضهما البعض فصلا تاما ولم يكن فى مقدور العمدة أن يفعل شيئا على مسئوليته قبل أن يستشير المأمور وكان المأمور يستشير المدير بينما المدير بدوره ينتظر تعليمات الوزير ثم بدأت الثورة تحمل هؤلاء جميعا جانبا من مسئولية الحكم وبدأت تسند الى القرية ذاتها جانبا من هذه المسئولية وتشجع الفلاحين على أن يفكروا وحدهم وعلى أن يتصرفوا وحدهم دون أن يصبحوا مجرد أدوات سلبية فى يد الحكومة •

خلاصة القول أن الثورة « حتى سنة ١٩٥٧ » تسير فى خط بناء يثبت فى نهاية المطاف أنها ثورة حقيقية رغم حالات معينة يسير فيها العمل بشىء من البطء لا يتمشى مع السرعة الفائقة والمذهلة التى يتم بها تحقيق انجازات أخرى . على أنه مهما يكن الأمر ، فان عبد الناصر فى جهد وصدق يحاول أن يبنى دولة جديدة ومجتمعا جديدا . مجتمعا نظيفا لأول مرة منذ مئات السنين . فهو — عبد الناصر — لا يزال يسكن فى نفس منزله الذى كان يسكن فيه وهو ضابط فى الجيش وهو يكره الفساد ولا يتساهل معه . وقد مضى بالفعل العهد الذى كانت تشترى أو تباع فيه حكومات مقابل مليون جنيه ومضى عهد « الكتاب الأسود » وعهد الرشاوى وفساد الأمم . صحيح ، أنه لا تزال هناك بقايا من هذه الأمراض الاجتماعية ولكنها بقايا فردية لا يمكن أن تقاس أبدا بما كان شائعا ومعهودا من قبل . لقد أصبح وجه مصر فى الواقع نظيفا وبدأت تحقق لنفسها سمعة دولية طيبة فى هذا المجال .

هذا بعض ما حققته الثورة من انجازات ثورية حتى سنة ١٩٥٧ من أجل المواطن المصرى . أليس المجال مناسبا الآن لكى نتحدث عن هذا المواطن نفسه .. عن أرضه التى يعيش فوقها .. أو ليس المجال مناسبا أيضا لكى نتحدث فى شىء من التفصيل عن أبرز ميدانين خاضت فيهما الثورة بقوانينها من أجل هذا المواطن . أعنى بهما الاصلاح الزراعى والتصنيع ؟

بعد أن انتهى الكاتبان الفرنسيان « جان وسيمون لاكتور » من تقييمهما لثورة ٢٣ يوليو من واقع انجازاتها حتى سنة ١٩٥٧ وجدا أنه من الضرورى أن يعرضا صورة للحياة فى أرض مصر ، فى أجزاء متناثرة من الجزء الأخير من كتابهما وذلك قبل أن يتحدثا

فى موضوعين رئيسيين من مواضيع الكتاب ، « ناصر والاصـــلاح الزراعى » ٠

وفى الفصـول الفرعية التى تحدث فيها الكاتبان عن صـور الحياة فى أرض مصر يعرضان خاصة حياة الفلاحين فى القرى وللأمل فى المستقبل الذى يتطلعون اليه منذ قامت ثورة ٢٣ يوليو ومنـذ بدأ المسئولون فى الحكم يبدون اهتمامهم الرئيسى لأول مرة منـذ مئات السنين بحياة الفلاحين وأوضاعهم فى أكثر من أربعة آلاف قرية تضم حوالى ثمانية ملايين من فلاحى مصر ٠ كما يتعرضـــان لمشكلة الزيادة المستمرة فى عدد سكان مصر باعتبارها من أهـم المشاكل التى تواجه حلول التنمية والانتاج ٠

ان قرى مصر الممتدة على طول وادى النيل ظلت آلاف السنين لا يكاد يميزها عن الارض السمراء التى هى قائمة فوقها الا مئذنة فى مسجد صغير أو برج كنيسة صغيرة ٠ وتعنى مشاكل الحيـاة السيئة لمجموع القاطنين فى القرى أهم المشاكل بالنسبة اليهم ، فان كل حياتهم مركزة حول ماء النهر الكبير وترعه وقنواته المتفرعة منه ٠

ولسوف نرى فى كل قرية من قرى مصر تقريبا نفس المناظر: الفلاحون يروحون ويغدون بماشيتهم ٠٠ النساء يغسلن أوانيهن وملابسهن على ضفة الترعة أو فى مغســـل كبير فى القرى التى وصلتها المياه النقية بعد الثورة أو يحملن جرارهن الجميلة المنظر غاديات من الحقول أو رائحات اليها ينقلن الماء لأزواجهن ؛ الماء اذن فى القرية المصرية شىء أشبه ما يكون بالمقدس ٠

ولسوف نشم فى كل مكان بالقرية رائحة الطعام خارجة من بيوت القرية أو من المطاعم الصغيرة المتواضعة فيها التى لا تبيع عادة فى

القرية الا « الطعمية » والفول . أما البقـالون الصغار فى القرية فهم يبيعون كل شيء فى محلاتهم الصغيرة أحيانا .. أو تحت أشعة الشمس أحيانا أخرى . والبضاعة تشكيلة مختلفة : آنية من النحاس .. حبال حقائب .. حلوى ذات ألوان زاهية .. سجاير .. بيض جبن أبيض مملح .. شاى ـ وهو متعة الفلاحين الكبرى أغنياء كانوا أو فقراء ـ أقمشة قطنية محلية .. سكر .. ملح .. أهم من ذلك كله « الجاز » الذى يستخدمه الآن كثيرون من الفلاحين فى مواقد البريموس بدلا من الكانون أو الفرن أو جنبا الى جنب معهمـا .. نساء القرية يتمتعن بملامح نبيلة ؛ يحببن الملابس الزاهية ويخدمن أزواجهن باخلاص .. ومنازل القرى بوجه عام مبنية بالطوب النيء المصنوع من خليط من الطين والتبن والحق أن هذه المادة فى البناء مادة مثالية بالنسبة لأرض مصر التى قلما تمطر سماؤها .. ولقد أحسست بالفعل بجمالها من ناحية تلطيف الجو حين دخلتها فى بعض القرى فأحسست برقة الجو داخلها رغم حرارته الشديدة فى الخارج .. ولكنها على أية حال ينبغى أن تزول بالتدريج لكى تحل محلها مساكن أخرى حديثة ونظيفة .

على أن فى مصر قـرى تختلف كثـيرا عن معظم قرى مصر . هناك مثلا قرية « أوشيم » قرية كبيرة يمكن أن تتطور فتصـبح مدينة كبيرة ، فهى تضم خمسة وعشرين ألف مواطن ، ولقد دخلت بيوتا منها يملكها مواطنون أبناؤهم يدرسون فى الجامعة أو ضـباط أو جنود فى الجيش . وقد تمتعنا بكرمهم فليس هناك فى الدنيا من هو أكثر كرما وحسن ضيافة من المصريين . وقد تناولنا مرة طعام الغذاء فى أحد هذه البيوت ، أوزة سمينة .. وملوخية .

وعندما يحج أحد الفلاحين الى بيت الله الحرام ، فانه يزخرف منزله بأسلوب من يحكى رحلته فى الحج ·· القطار ـ الباخـرة ـ الكعبة ـ أشجار النخيل والأمواج الزرقاء ·

وكثيرا ما ترى فى القرية مئذنة مسجد تواجه قبة كنيسة · فهناك فى مصر يعيش حوالى ثلاثة ملايين من المسيحيين الاقباط يعيشون مع اخوانهم المسلمين جنبا الى جنب · وفى كثير من القرى فى مصر وخاصة فى صعيدها تنتشر عادة الأخذ بالثأر · وهى عادة ذميمة تشبه كثيرا مثيلتها عند أبناء « صقلية » ، وأكثر الجرائم التى ترتكب فى القرية جرائم الشرف ؛ فان الفلاح يعتز بكرامته اعتزازا بالغا لا يسمح لأحد بأن يخدش هذه الكرامة فى أى شكل من الأشكال وخاصة فى العلاقات الشخصية ·

ولقد ظلت القرية طيلة مئات السنين قبل الثورة تعانى من حدة الفروق بين الغنى الاقطاعى مالك الأرض وبين الفلاح والأجير الذى كان يعمل فى حقله أشبه بالعبد · وكان من أبشع المتناقضات حقا أن هذه الأرض الطيبة التى تمثل أكثر تربة فى العالم كله خصوبة يعيش فوقها أفقر الفلاحين ·· فيما عدا الفـلاح الهندى بالطبع ·

ومن الملاحظات الجديرة بالاشارة حقا ، أن المرأة تشـــارك الرجل فى عمله مشاركة حيوية وفعالة ، فهى تطعم ماشيته وقـــد تذهب بها الى الحقل · بغذاء زوجها وأولادها ·وقد تشاركه فى أعمال الفلاحة نفسها · كل ذلك الى جانب عملها الطبيعى كربة بيت وأهمه بطبيعة حياة الفلاحين ـ تزويد المنزل بالمياه اللازمة له ·

وهناك أكثر من ألف قرية (حتى سنة ١٩٥٧) زودهـــا المسئولون بالمياه النقية سواء فى « حنفيات عامة » فى ميادين القرية

أو عبر أنابيب فى بعض هذه القرى .. وكثيرا ما تكون بعض منازل القرية مزودة بـ « طلمبة » تزود سكانها بالمياه النقية الجوفية .

ومن الجدير بالاشارة ، أن الفلاح المصرى مستعد تماما لتقبل كل ما هو جديد ربما أكثر من استعداد الأوروبى نفسه : ومن ثم فان تحضير القرى وتمدينها ينتظر اهتمام الحكومات فحسب. وهو أمر يضعه المسئولون بالفعل فى حسابهم وتخطيطاتهم .

ولقد كان الخبز يمثل ٨٠٪ من غذاء الفلاحين الذى يخبزونه فى أفران داخل منازلهم والمرأة فى القرية تهتم بطفلها فى طفولته اهتماما كبيرا .. ولكن المؤلم حقا أنها ترضع أحدهم فى الوقت الذى تنتظر فيه طفلا آخر . والتعليم الأولى الزامى فى القرية وان كان كثيرون من الآباء يفضلون أن يشترك أبناؤهم فى كثير من الاعمال التى تتطلبها طبيعة الحياة الزراعية فى القرية .. وخاصة فى نقاوة دودة القطن وفى جنى القطن نفسه بعد ذلك وفى العمل خلال بعض المواسم الزراعية الأخرى . والحق أن البراعة المذهلة تدهش الناظرين وهم يرون هؤلاء الفلاحين الصغار يؤدون أعمالهم فقد خلقوا فلاحين منذ نعومة أظفارهم .. على أن هذه الأوضاع بدأت تنتهى مع بداية اهتمام الثورة بالفلاحين وبتحسين حالتهم .. كما أن الفلاحين أنفسهم بدأوا يشجعون أولادهم على الالتحاق بالمدارس ويصرون عليه .. مع اهتمام حكومة الثورة ببناء المدارس فى القرى ذاتها .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن الرقعة الزراعية التى كانت موجودة حتى سنة ١٩٥٢ لم تكن تكفى أبدا حاجات ملايين المصريين الذين يعيشون على أرض مصر ولهذا السبب اهتمت حكومة الثورة

بزيادة الرقعة الزراعية وأولت مشروع السد العالى معظم اهتمامها
٠٠ خاصة وأن الزيادة المطردة فى عدد السكان التى تمضى فى معدل
كبير تؤكد ضرورة زيادة الرقعة المنزرعة لكى تستوعب السنين
القادمة المزيد من المواطنين القادمين فان معدل الزيادة فى السكان
يجرى بنسبة نصف مليون كل عام أو بنسبة مواطن واحد جديد
كل دقيقة بل ان الزيادة فى سنة ١٩٥٥ فاقت كل الارقام السابقة
اذ بلغت ثلاثة أرباع المليون وهو أمر ولا شك يمكن أن يكون ذا تأثير
اقتصادى بالغ فى البلاد ٠ ويمكننا أن ندرك ذلك حين نعرف أن عدد
سكان مصر فى سنة ٢٠٠٠ قد يبلغ خمسين مليونا اذا ما استمر
معدل الزيادة على ذلك النحو ٠ فى السنوات الخمسين السابقة
للثورة انخفض دخل الفرد بنسبة ٢٥٪ بينما ازداد عدد السكان
من عشر ملايين الى حوالى ثلاثة وعشرين مليونا من البشر ٠ وبينما
كان معدل الزيادة فى العالم يجرى بمعدل ١٪ فى المتوسط
كان يجرى فى مصر رغم ضيق الرقعة الزراعية بمعدل الـ ٥ر٢٪ ٠

وقد بلغت كثافة السكان فى بعض المناطق الريفية ٢٢٠٠
فرد للميل المربع الواحد وتبلغ هذه الكثافة فى القاهرة حوالى
٢١٠٠٠ نسمة للميل المربع ٠ ترتفع فى باب الشعرية مثلا الى
٢٨٧٫٠٠٠ ، وفى سنة ١٩١٤ كان ١٢ مليونا ونصف مليون هم
تعداد سكان مصر فى ذلك العام يتقاسمون بينهم ثلاثة ملايين ونصف
مليون طن من الحبوب ؛ وفى سنة ١٩٤٠ كان هناك سبعة عشر
مليونا يتقاسمون أربعة ملايين طن فقط من الحبوب ٠

والآن ٠٠ ما هو السبب فى هذه الزيادة السريعة المخيفة ؟

ان تغير معدل الزيادة فى السكان فى العالم كله عادة ترتبط
ارتباطا وثيقا بتحسن الحالة الصحية وفى القرن التاسع عشر حلت

الأمراض التقليدية محل الامراض الوبائيـــة فى القرن العشرين استطاع الطب أن يتغلب على كثير من الامراض من النوع الاول ومن ثم انخفضت بالتالى نسبة الوفيات بوجه عام ٠

ولقد حدث نفس الشىء فى مصر حيث انخفضت نسبةالوفيات من ٢٨ فى الالف سـنة ١٩٤٤ الى ١٩ فى الألف سنة ١٩٥٢ وانخفضت أكثر فى أعوام الثورة نتيجة الخدمات الصحية المختلفة وفى نفس الوقت ازداد معدل الانجاب ٠٠ يضاف الى هذا أن هناك زيادة ناشئة من تعدد الزوجات ومن الزواج بأكثر من واحدة بعد أن يتكرر الطلاق مرة أو أكثر وخاصة فى المدن حيث العـلاقة الزوجية فى القرية أكثر تماسكا ٠ ولقد عرفت مثلا سـيدة فى القاهرة فى العشرين فحسب من عمرها طلقها زوجهـا عن طفلين أرسلتهما الى أمهـا فى القرية بينما تزوجت هى بعد طلاقها بشهور قليلة ٠٠ وما لبثت أن حملت بعد أسـابيع قليـلة ـ فان المجتمع المصرى ينظر نظرة غير طيبة فى العادة الى الرجل غير القـادر على الانجاب ـ ان هذه السيدة المصرية الصغيرة التى أشرت اليهـا أصبحت أما لأول مرة وهى فى السادسة عشرة وكانت تنتظر طفلها الرابع فى العشرين من عمرها من زوجها الثانى ومن يعلم ربما كان لهذا الزوج الثاني أطفال من زوجة أولى قبل هـذه السيدة ٠٠ طلقها هو الآخر !

وقبل عام ١٩٥٢ لم تكن الثروة الزراعيـة تكفى المواطنين جميعا وكان القطن والارز ـ وهما يمثلان المحصول الزراعى الرئيسى فى مصرـيصدر معظمهما الى الخارج ٠ كان معظم انتاج القطن يصدر نظرا لضآلة مجالات التصنيع فى ذلك الوقت ٠ ولم يكن هنـاك سوى قصب السكر الذى يصنع ويستهلك كله فى مصر ٠ ولم تكن

عمليات الاصلاح فى ميدان الزراعة تتيح أى ارتفاع فى مستوى معيشة المواطنين ؛ ولكنها كانت تتيح فقط مزيدا من الثروة والغنى للاقطاعيين الذين كانت تقام لصالحهم فى المحل الأول هذه العمليات الاصلاحية طائفة من الاقطاعيين تتمثل فى ثلاثمائة أو أربعمائةأسرة فقط .

وحتى عام ١٩٥٢ كان انتاج القطن يحقق دخلا قيمته السنوية حوالى سبعين مليونا من الجنيهات لدولة كانت ميزانيتها السنوية مائتى مليون جنيه فقط . وكان أكثر من ثلث مساحة الارض المزروعة يزرع قطنا ولهذا كانت اقتصاديات مصر تعتمد فى المحل الأول على محصول القطن ومن ثم فان أوضاع الفلاحين الكادحين كانت ترتبط كل الارتباط بأسعار القطن وهو أمر لا يمكن أن يخدم الزيادة المستمرة فى عدد السكان خاصة وان الرقعة المتبقية من مجموع مساحة الأرض فى مصر لم تكن تكفى لاطعام ملايين المصريين كلهم. ان تعداد سكان مصر كان على أيام رمسيس الثانى تسعة ملايين؛ ثم انخفض عددهم فى عهدها المسيحى الى خمسة ملايين ثم مليونين ونصف فقط أيام نابليون . وفى منتصف القرن التاسع عشر بلغ عددهم مرة أخرى حوالى خمسة ملايين ثم الى عشرة ملايين فى سنة ١٨١٧ فالى تسعة عشر مليونا فى سنة ١٩٤٧ والى ثلاثة وعشرين مليونا سنة ١٩٥٦ ومن ثم فان سكان مصر تضاعفوا فى مدة تقل عن الخمسين عاما جاعلين من وادى النيل أكثر مناطق العالم كثافة بالسكان ، فان نسبة هذه الكثافة فى مصر ضعف نسبتها فى بلجيكا . وهى مطردة فى الزيادة فقد كانت نسبة الزيادة ١ر٣٪ « حتى سنة ١٩٢٧ » ثم أصبحت ٢ر٢ ثم ٥ر٢٪ فى سنة ١٩٥٥. والحق أن هذه الزيادة الاخيرة كانت نتيجة انخفاض نسبة الوفيات بالنسبة للأطفال نتيجة الرعاية الصحية ، وينتظر بالتالى

أن يصبح عدد سكان مصر فى سنة ١٩٦٥ حوالى ثلاثين مليون .
ويلاحظ أن المدن الرئيسية تجذب العمال الزراعيين اليهـــا لكى يتحولوا الى عمال صناعيين أو يعملوا فى مختلف المهن كما هو الحال فى القاهرة والاسكندرية . والحق أن حكومة الثورة فى مصر تعمل بشتى الطرق فى مواجهة هذه الزيادة باستيعاب كثير من العمال فى مجالات التصنيع الجديد . وقد بلغ عدد العمال الذين التحقوا بأعمال صناعية فى السنوات الثلاث الأولى للثورة ثلاثين ألف عامل جديد . وعلى وجه العموم فان مشكلة ازدياد السكان فى مصر ترجع غالبا الى نقص الوعى فى بعض البيئات ، والى التقاليد والانحرافات التى تسود بيئات أخرى ، ثم الى الفراغ الذى كان يسود حياة طائفة كبرى من أبناء مصر وخاصة الفلاحين فى عشرات السنين الماضية التى كان واقعا فيها تحت سيطرة الاقطاعيين .ومن ثم فان القضاء على هذه المشكلة أو مجابهتها يحتاج فى المحل الأول الى حلول اقتصادية واجتماعية معا تهـــدف الى عمليتين اثنتين فى البداية :

أولا : امتصاص الزيادة فى عدد السكان .

ثانياً : وقف مثل هذه الزيادة فى المستقبل .

ولقد اهتمت حكومة مصر بعد الثورة اهتماما كبيرا بهـــذه المشكلة حيث وضع فى سنة ١٩٥٦ خطة لعشر سنوات ذات شقين؛ اقتصادى واجتماعى؛لكى تنسق الجهود الاجتماعية والجهود الاقتصادية لمجلس الانتاج والجهود الزراعية لوزارة الزراعة وتتلخص هـــذه فى ثلاثة مبادىء :

أولا : اعادة التنظيم الزراعى بزيادة حجمه كما وكيفا مع زيـــادة الانتاج لكى يسد حاجات السوق المحلية .

ثانيا : زيادة حجم الانتاج الصناعى فى المصانع القائمة الى أقصى حد ممكن ٠

ثالثا : خلق بناء صناعى على أساس ثلاث مراحل :

(أ) صناعة البضائع الحيوية التى يحتاجها المستهلك المصرى ٠

(ب) صناعة البضائع الوسيطة « الآلات الزراعية » و « الدراجات » و « الأدوات الكهربائية » ٠

(جـ) خلق الصناعات الثقيلة ٠

ويؤكد خبراء الخطة أنهم يضعون فى اعتبارهم بالمحل الاول زيادة الانتاج ذاته أولا ، وتغيير البناء التقليدى للاقتصاد الوطنى٠ كما انهم يؤكدون أيضا على تطوير الزراعة والاساليب الزراعية نفسها بما يخدم هذه الخطة كثيرا ٠ ويبقى بعد هذا أن المصريين يحتاجون الى مزيد من الارض الزراعية لزيادة الرقعة المنزرعة فى وادى النيل ومن ثم أصرت الثورة على أن تبنى السد العالى وخاضت من أجله معركة ضارية ، هذا الى جانب استصلاح الأرض حيثما يمكن استصلاحها ، والاهتمام بأية مشروعات مائية قادرة على ايجاد الماء لأغراض الزراعة ولخلق قوى هيدروليكية ٠ على أن أكثر الخبراء تفاؤلا يؤكدون أيضا أنه حتى فى حالة زيادة الانتاج وزيادة الرقعة المنزرعة الى أقصى الحدود الممكنة فانها لن تكون لها فائدة بعد عشرين سنة مثلا اذا استمرت الزيادة فى عدد السكان على ما هى عليه من معدل سنوى ؛ وهنا يجىء دور خبراء الاجتماع ٠ ان تحديد النسل يثير مناقشات كثيرة فى مصر بين التقليديين والتقدميين ٠ ولقد اهتمت الثورة كذلك بهذا الجانب الاجتماعى فى حل المشكلة حتى سنة ١٩٥٦ تكونت لجنة اجتماعية خاصة تقوم بعملية مسح

شاملة فى دراسة اجتماعية وعملية لطرق الحياة فى مصر للوصول الى حلول سريعة وآمنة لتحديد الاسرة المصرية • تضع فى اعتبارها فى المحل الاول ، الدعوة الى ضبط معدل النسل • كما ان الكثيرين من الخبراء يتفقون على أن التقدم المطرد فى التعليم سوف يزيد من وعى المواطنين بهذه المشكلة وبأوضاعهم الاقتصادية ذاتها ومن ثم فان الحكومة الثورية فى القاهرة تهتم اهتماما زائدا بمحو الامية ونشر التعليم على أوسع نطاق حيث يجرى بناء المدارس بمعدل مدرستين فى اليوم الواحد •

ويمكن للزائر أن يلاحظ التغيير الشامل الذى طرأ على حياة الفلاحين فى مجتمع جديد أقامته الثورة فى مديرية التحرير مثلا ـ فهى نموذج طيب ينبغى أن تكون عليه القرى المصرية جميعها ـ كما ان المراقبين كذلك يؤكدون أن ارتفاع مستوى المعيشة على وجه العموم سوف يكون عاملا مساعدا على التخفيف من حدة هذه المشكلة وتعلم حكومة الثورة تمام العلم بأنها فى حرب مستمرة مع الاوضاع التى خلفتها مئات السنين حتى عام ١٩٥٢ ، ومن ثم فهى تعمل جاهدة فى ميدان التنمية الاقتصادية والتصنيع والاصلاح الزراعى بخطى ثورية سريعة ، وقد وضعت نصب عينيها فى المحل الاول تحرير الاقتصاد المصرى وتأكيد استغلاله حيث رأت فى ذلك تحريرا لمصر ذاتها من نظام اقتصادى استعمارى ربط مصيرها بالاستعمار طويلا، كما رأت فى ذلك أيضا وسيلة فعالة لرفع مستوى المعيشة حين يصبح الاقتصاد المصرى ملكا خالصا للمصريين ، ومن ثم يمكن مواجهة المشكلة الاساسية ـ مشكلة زيادة السكان ـ ولقد سارت حكومة الثورة فى هذا الصدد شوطا بعيدا منذ اليوم الأول للثورة ، فلقد أقامت صناعات جديدة مصرية خالصة كصناعةالحديد والصلب •• وأقامت محطات لتوليد القوى الكهربائية فى أماكن كثيرة من

الدلتا علاوة على كهرباء خزان أسوان ٠٠ والكهرباء التى تنتج عن مشروع السد العالى والتى ستقفز بمصر الى مصاف أكثـر الدول استهلاكا للكهرباء بالنسبة للفرد الواحد ٠ ولقد خلقت صـناعة واحدة ـ كصناعة الحديد والصلب ـ مجالات طيبة أخرى كثيرة كان وجودها صـعبا لعدم توفر الحديد والصلب المحليين ٠

ولكى تحمى الثورة هذه الصناعة الوليدة كان لابد أن تحد من استيراد الكماليات من الخارج كما فعلت مع صناعات أخرى كثيرة، وكان من نتيجة هـذه السياســـة الحكيمة أن انتعش كثير من الصناعات المصرية الصميمة وملأت بضائعها الاسواق مثل صناعات اطارات السيارات والأدوات المنزلية والبلاستيك والأثاث والمنسوجات وغيرها ، كما شجعت على اقامة مصـــانع للتجميع فى مصر تمهيدا لاقامة صناعاتها كاملة مثل تجميع السيارات والاوتوبيسات ٠ كذلك أقامت صناعات ثقيلة جديدة مثل صناعة عربات السكك الحديدية والدراجات وأقامت مصانع الاسلحة الخفيفة ثم الثقيلة التى لا تكفى حاجة الجيش المصرى فحسب ، بل يمكن أن تمد الجيوش العربية وجيوش البلاد المجاورة الأخرى ٠

كذلك اهتمت حكومة الثورة اهتماما بالغا بالثروات المعدنية مثل البترول وكثير من المعادن الاخرى فى الصحراء الشرقية وسيناء وتبع ذلك اهتمام بالغ بالصناعات الكيماوية كصـــناعات الزيوت والصودا والروائح العطرية والصابون ٠ كذلك اهتمت بصناعـــة الاسمدة الكيماوية من أجل حاجات التقدم والتطور الزراعيين ٠ كل ذلك كان يجرى الى جانب كثير من الصناعات الاخرى التى استوعبت عشرات الالوف من العمال وفتحت مجالا للكسب ورفع مستوى المعيشة للملايين التى تعولها الايدى العاملة ٠ وهو الهدف الرئيسى الذى وضعته الثورة نصب عينيها منذ سنة ١٩٥٢ ٠ ليس هـذا

فحسب ، ولكن الثورة اهتمت - الى جانب اهتمامها بالتصنيع وبمشكلة الارض الزراعية - بتطوير أساليب الزراعة وبتحسين وسائل الرى وبادخال أو تشجيع زراعات جديدة وبزيادة الرقعة المزروعة فى مصر . كل هذا يمكن أن نلخصه فى كلمتين : « الاصلاح الزراعى » .

والاصلاح الزراعى فى مصر يستحق منا وقفة مع كتاب « جان وسيمون لاكوتور » ومع الكتاب الثانى الذى وضعته « دورين وارينر » فى ذات الموضوع ويشيد الكتابان بقانون الاصلاح الزراعى . وتطبيق الاصلاح الزراعى فى بلادنا يعتبر أول تطبيق ثورى من نوعه فى العالم ، وقد أصبح قدوة ونموذجا لكل الشعوب المتحررة والتى تسعى الى الاشتراكية . واستطاعت الثورة بفضل هذا القانون أن تقضى على الاقطاع وآثاره الاجتماعية ، وأن تحرر الفلاح من أجور العمال الزراعيين ، وأن تزيد دخولهم ، وبالتالى ترفع من مستواه الاقتصادى والاجتماعى .

ولمواجهة زيادة السكان ، أنشأت الثورة السد العالى الذى سوف يزيد الدخل الزراعى بنسبة ٥٠٪ . والذى سوف تستخدم الكهرباء الناتجة عنه فى تصنيع البلاد . وقد نوه الكاتبان بتجربة مديرية التحرير والنجاح الرائع الذى حققته بالنسبة للفلاح ولأولاد الفلاحين وأشاد المؤلفان بانسانية عبد الناصر التى تقف وراء كل هذه المشروعات الثورية وبارادته الصلبة لتحقيق ما يؤمن به لصالح الشعب ورفاهية الشعب .

أكد المؤلفان الفرنسيان « جان وسيمون لاكوتور » أن أهم مشكلة واجهت حكومة الثورة هى مشاكل التنمية الاقتصادية لمواجهة الزيادة المستمرة فى عدد السكان ومن ثم فقد وضعت برامج مدروسة فى هذا الصدد تهدف الى سرعة تصنيع البلاد والى زيادة

الرقعة المنزوعة من الارض لرفع مستوى معيشة المواطن ، وبالتالى مواجهة مشكلة الزيادة بعملية اصلاح وتوعية اجتماعية بعد نشر التعليم بأقصى ما يمكن من جهد وسرعة • وقد أوردنا نماذج لها قدمته حكومة الثورة من انجازات فى هذا الميدان وأشرنا الى حركة التصنيع والى الاتجاهات الثورية نحو تحرير الاقتصاد المصرى من تبعيته لأى جهة من الجهات أو دولة من الدول ، ثم أشرنا فى ايجاز الى العمل الثورى فى مجال الارض ، حيث اهتمت بها حكومة الثورة اهتماما بالغا لأثرها المادى والاجتماعى والسياسى على ثمانيـة ملايين من الفلاحين يمثلون جانبا كبيرا من أبناء الشعب •

ولقد اهتم الكاتبان الفرنسيان « جان وســيمون لاكوتور » بمشروع السد العالى على أساس أنه حجر الزاوية فى عملية زيادة الرقعة الزراعية فى مصر بينما تخصص « دورين وارينر » كتابها كله للحديث عن الاصلاح الزراعى ومشاريعه فى مصر وســوريا والعراق • وسوف نعرض كما ذكرنا من قبل ، للجزء الذى خصصته فى كتابها لمصر •

الحق أن الكتاب الاجانب ، ينظرون الى عمليات الاصــلاح الزراعى وقوانينه فى الجمهورية العربية المتحدة باعتبارها عملا ثوريا جديرا بالاهتمام والملاحظة ، لأنه يكاد أن يكون ـ ان لم يكن بالفعل ـ أول نموذج من نوعه يطبق فى العالم على أساس مواجهة مشاكل البلاد فى صراحة ووضوح وحسم • ومن ثم فان هؤلاء الكتاب يدرسـون هذه العمليات الثورية لكى يكشفوا ما وراءها من أهداف اقتصادية واجتماعية ، ولكى يحددوا الى أى مدى نجحت هذه العمليــات فى تحقيق تلك الاهداف : خاصة وان كثيرا من الدول التى حررت أخيرا والتى تسير فى خط اشتراكى تقدمى طلبت الى القاهرة أن تمدها بكافة القوانين والاجراءات التى تمت تلك العمليات الاصلاحية على

أساسها بعد أن لمست مدى التغيير الذى شمل الفلاح والأرض فى كثير من المجالات ٠

لقد حشد عبد الناصر كل العناصر الوطنية والثورية لكى تضع قوانين الاصلاح الزراعى موضع التنفيذ فى مصر باعتبارهـــا حلا لكثير من المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعيـــة التى تواجه البلاد أو على الأصح كانت تواجههـــا مع بداية الثـــورة ، وباعتبارها أيضا وسيلة لتضييق الشقة بين الزيادة المطردة فى عدد السكان ، وبين الزيادة الضئيلة فى مجال الانتاج الزراعى ٠

وتقول « دورين وارينر » فى كتابهـــا عن « الاصلاح الزراعى وتطور مشكلة الارض فى مصر ٠٠ » ان حكومة الثورة فى مصر لكى تواجه المشكلة مواجهة صريحة وحاسمة قد لجأت فى ذلك الى سياسة رسمت على النحو التالى :

قروض أجنبية لمواجهة حركة الاستثمار والتصنيع الى جانب اصلاحات جذرية فى اقتصاديات الدولة ، كل ذلك فى شـــكل اقتصاد موحد ممتزج ، ولقد كانت الثورة فى الحقيقة متمشـــية مع المنطق الثورى حين أصرت على أن تضع موضع التنفيذ وبكل دقـــة كل توصيات الاقتصاديين فى مجال التنمية السريعة واضحة الحدود والمعالم وجعلت من (العمل والتجربة) خطها الاساسى فى الاصلاح الثورى كل ذلك لمواجهة احتياجات مصر مواجهة جادة احتياجاتها فى مجال اقتصاد متكامل ومزيد من الارض ومزيد من الصناعات٠ ولقد أعلنت الثورة فى قانون الاصلاح الزراعى فى أيامها الاولى ولكن القانون بأكمله وضع موضع التنفيذ على عدة مراحل ٠ ولقد كان قانون الاصلاح الزراعى فى حد ذاته سببا فى مواقف واجهت عبد النـــاصر لاصراره على أن يطبق القانون فى حزم وسرعة ودون تلكؤ ؛ لصالح جماهير الشعب ولصالح الانطلاقة الثورية ذاتهـــا

واستطاع عبد الناصر بالفعل أن ينتصر للشعب وبالشعب وأن يضع هذا القانون موضع التنفيذ بالرغم من كل العقبات التى اعترضت طريقه . ولقد رأى عبد الناصر في مثل هذا القانون ـ بصرف النظر عن الاعتبارات الاقتصادية ـ عملا انسانيا ضروريا لانتشال ملايين الفلاحين من الاوضاع المهينة التي كانوا يرزحون تحت أثقالها .

ويمكن أن نحدد الدوافع الثلاثة التى تختفى وراء هذا القانون على النحو التالى :

أولا : الرغبة المخلصة .. والتصميم الجاد على أن تتم هذه الاصلاحات الثورية لأسباب انسانية بحتة .

ثانيا : تحطيم قوة الأوليجاركية القديمة الحاكمة : بجذورها الضاربة فى الاقطاعيات الكبيرة .

ثالثا : ابراز اتجاه الثورة الاجتماعى منذ الايام الاولى لهذه الثورة لكى يكون كل شيء واضحا وصريحا .

الى جانب هذا كله ، فان الثورة كانت ترى ضرورة الحد من جنون ملاك الارض الكبار باقتناء مزيد من هذه الأرض وباجبارهم على تشغيل بعض رءوس أموالهم فى مجال التصنيع أو فى مجالات اقتصادية أخرى ، مما لامجال للشك فيه أن قانون الاصلاح الزراعى قد نجح تماما فى القضاء على الاقطاع بمصر ومن ثم حقق فى البداية هدفه السياسى الثورى ولقد اتضح هذا بصورة جلية فى صعيد مصر حيث الرقعة الزراعية محدودة . وحيث كان الاقطاعيون الكبار أمثال يوسف كمال وأحمد عبود وغيرهما يمتلكون أكثر من ثلث هذه الرقعة . لقد استطاع القانون فى المحل الأول أن يحد من تركيز الملكيات الزراعية فى أيد قليلة ، واستطاع بالتالى أن يعيد توزيع الدخول فى صالح الفلاحين . هذا الى جانب

أن القانون فى حد ذاته والقوانين الاخرى المكملة له خفضت ايجارات الأرض بالنسبة للفلاحين الذين يزرعونها ورفعت أجور العمال الزراعيين تحت القوانين التى سارت جنبا الى جنب مع عمليات التطور الزراعى ذاتها فى الكم والكيف ٠ ان مساحة الرقعة المنزرعة فى مصر لا تكاد تزيد عن ستة ملايين من الافدنة ، وكان من الضرورى أن تسد حاجات أربعة وعشرين مليونا هم عدد سكانها من بينهم أكثر من ثمانية ملايين من الفلاحين بمعنى أن كل فدان ينبغى أن يسد حاجة أربعة أفراد على وجه التقريب ٠ ولقد كان من الضرورى بالنسبة للثورة أن تواجه هذه المشكلة حيث يزداد عدد السكان كل عام بنسبة تزيد على انتاج الارض الزراعية ذاتها ففى الفترة ما بين عامى ١٨٩٧ ـ ١٩٤٧ زاد عدد السكان الى الضعف بينما لم تزد مساحة الارض المنزرعة على ١٤٪ دون زيادات ملموسة فى حجم الانتاج ذاته ٠ وفى الفترة ما بين عامى ١٩٢٤ ـ ١٩٥٠ زاد عدد السكان بنسبة ٤٢٪ بينما لم يزد حجم الانتاج الزراعى عن ٤٠ ٪ ٠

هذه الزيادات المستمرة فى عدد السكان كانت نتيجة لأسباب صحية واجتماعية كثيرة تتعلق بطبيعة العصر نفسه وبطرق الحياة وأساليبها فى مصر ٠ ولو كان الحال قد استمر على هذا المنوال لواجهت مصر كارثة فى يوم من الايام ٠ ومن ثم كان من الضرورى أن يسرع عبد الناصر ويجد حلا لهذه المشكلة فى أسلوب ثورى حاسم يسير جنبا الى جنب مع قانون الاصلاح الزراعى ٠ كان لابد من زيادة الرقعة المنزرعة فى مصر ، وكان لا بد أيضا من توفير المياه لرى هذه الرقعة،وكان السد العالى الخطوة هو الاساسية الاولى فى هذا الصدد ٠ وحتى دون الاستفادة من مياه السد العالى تمكنت حكومة الثورة من استصلاح أكثر من ثلاثمائة ألف فدان حتى نهاية عام ١٩٥٦ ومن تحويل آلاف أخرى من الافدنة فى الصعيد من رى

الحياض الى الرى الدائم وخاصة فى الجهات التى كانت اقطاعيات لكبار الملاك السابقين ، كما استطاعت الثورة أن تجعل من مشروع مديرية التحرير حقيقة واقعة حيث تم استصلاح آلاف الافدنة ، وحيث يجرى العمل حثيثا على استصلاح المزيد منها باستخدام المياه الجوفية فى المحل الاول . كذلك فان الثورة استطاعت أن تستصلح مساحات كبيرة أخرى فى مناطق البحيرات والفيوم وبعض منـــاطق الصحراء الى جانب مساحات أخرى شاسعة تحول فيهـا رى الحياض الى رى دائم .

وعندما يتم بناء السد العالى ، فسوف تتوفر ميـــاه الرى بصورة دائمة موسمية ، ومن ثم يمكن زيادة مليون ونصف مليــون فدان جديد الى الرقعة الزراعية « فى مديرية التحرير » كما سوف تسمح هذه الزيادة فى المياه بتحويل سبعمائة ألف فدان من رى الحياض الى الرى الدائم وبالتالى مضاعفة المحصول الزراعى فيها. وكل هذا سوف يزيد الدخل الزراعى بنسبة ٥٠٪ هذا الى جانب اختفاء حوادث الفيضانات التى كانت تخرب فى كل عام مساحات كبيرة من الأرض .

وسيتم هذا المشروع على مرحلتين ينتج السد العالى بعدهما قوة كهربائية تقدر بـ ٨٫٣٠٠ مليون كيلو وات ساعة ويتكلف حوالى ٣٠٩ مليون من الجنيهات منها ٦٨ مليونا تكاليف بناء الســـد ، وسيكون السكان فى مصر قد ازدادوا بمقدار خمســـة أو ســـتة ملايين . ولكن الدخل القومى حينذاك لن يكون قاصرا على الانتاج الزراعى ، ولكنه سيعتمد ـ وربما فى المحل الاول ـ على الانتاج الصناعى الذى ستتيحه الكهرباء الناتجة من بناء السد العالى .

الى جانب هذا كله ، اهتمت حكومة الثورة فى مصر بتحسين نوعية الانتاج الزراعى لرفع نسبة غلة الفدان الواحد على أساس خطة تهدف الى التوسع الزراعى الافقى والرأسى معا ٠

والآن ، لنبحث معا فى شيء من التركيز ، النتائج التى حققها قانون الاصلاح الزراعى بالذات ، بالنسبة لمواده ٠

يقول القانون فى مادته الاولى ـ وقبل التعديلات الاخيرة ـ « ان أى فرد لا يجوز له أن يمتلك أكثر من مائتى فدان أو ثلاثمائة فدان ، اذا احتفظ بخمسين فدانا لكل من ابنين اثنين له » ٠ كما سمح القانون للشركات بأن تمتلك أكثر من هذا القدر فى الاراضى الصحراوية أو شبه الصحراوية ٠

وبدأ القانون يوزع الارض الزائدة على المعدمين من الفلاحين بواقع فدانين كحد أدنى وخمسة أفدنة كحد أقصى ، وقد تم الاستيلاء بمقتضى هذا القانون على مساحة قدرها ٦٥٦ر٧٣٦ فدانا من ١٧٨٩ مالكا ٠ ولقد سمح القانون للملاك حينذاك ببيع مساحات فى أرضهم الزائد على شكل مساحات أخرى صغيرة لا تزيد على خمسة أفدنة على ألا يشتريها أقاربهم وعلى ألا تزيد ملكية المشترى عن خمسة أفدنة ، وقد تم بيع ١٤٥٠٠٠ر فدان بهذه الطريقة ثم صدرت المادة الرابعة من هذا القانون فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ تمنع البيع الخاص ٠

أما بالنسبة للأرض التى كانت تمتلكها الاسرة المالكة ،وكانت مساحتها تبلغ ١٧٨ ألفا من الافدنة ، فان قانون الاصلاح الزراعى استولى عليها جميعها دون أية تعويضات باعتبارها ملكا للشعب اغتصبه من لا حق لهم فيه ٠ ولقد تم فى نهاية عام ١٩٥٥ توزيع ربع مليون فدان على ٦٩ ألف أسرة تضم ٤١٥ ألف فرد بمتوسط

ثلاثة أفدنة ونصف فدان للأسرة الواحدة ، ولقد أدى ذلك الى رتفاع سريع في الدخل ، كما بدأ الفلاحون يستفيدون من جمعياتهم التعاونية التى تقدم لهم القروض بلا فائدة وتقدم لهم المخصبات والخدمات الزراعية الأخرى ، ومن ثم فان الانتاج الزراعى ذاته قد زاد فى هذه الارض عما كان عليه من قبل • ولقد بلغت قيمة الزيادة فى الدخل الصافى للفدان الواحد أكثر من سبعة جنيهات بنسبة ٥٠٪ بوجه عام •

ولقد كان لنظام الزراعة التعاونية فى هذه الاقطاعيات السابقة ، أثره فى زيادة الدخل وحجم الانتاج •ففى سنة ١٩٥٤ ـ أى بعد عامين فقط من بدء الثورة ـ أنتجت هذه التعاونيات الزراعية ما قيمته ٢٧ مليونا من الجنيهات من القطن غطت كلها متطلبات الفدان الواحد (قيمة قسط ثمن الارض ـ وقيمة الضريبة، وثمن التقاوى ، والاسمدة والخدمات الزراعية المختلفة) • فى الصعيد وضحت هذه الزيادات فى الانتاج والدخول بصورة رائعة • مثال ذلك : اقطاعيات أرمنت السابقة (خمسة آلاف فدان) التى كان دخلها من بيع قصب السكر ٢٣٥ ألف جنيه ومن ثم كان دخل الفلاح هناك أكثر من دخل الفلاح فى الدلتا ولقد بلغت نسبة الزيادة فى دخل الفلاح فى بعض مناطق الصعيد بالنسبة لأراضى الاصلاح الزراعى حوالى ١٠٠ ٪ •

ولقد فطنت حكومة الثورة لهذا التباين فى نسب الزيادة فى الدخول « تبعا لطبيعة الأرض المزروعة ونوع الزراعة نفسها » فاتجهت الى تحديد حد أدنى ينبغى أن يحصل عليه الفرد الواحد سنويا فى أسرة الفلاح ، وهذا الحد الادنى الذى ضمنته الحكومة يبلغ حوالى ستة عشر جنيها ومن واقع احصائيات الهيئة العليا للاصلاح الزراعى • ويبدو أن هناك زيادة مستمرة فى الدخول

تتراوح ما بين ١٠٠٪ ، ٢٠٠ ٪ وخاصة فى ست مناطق من مناطق الاصلاح الزراعى ثلاث منها فى الدلتا وثلاث فى الصعيد ٠

والأمر الذى لا شك فيه أن الفلاحين المنتفعين بقانون الاصلاح الزراعى قد جنوا زيادة ملحوظة فى الدخل ٠ وكذلك فانهم قد أصبحوا دون جدال ملاكا مستقلين رغم وجودهم ضمن نظام التزارع التعاونى لأسباب اقتصادية بحتة ، والأمر الأهم من ذلك كله أن كل واحد منهم أصبحت له شخصيته المستقلة ووضعه الانسانى اللائق الى جانب ما يضمنه نظام التعاونيات من تأمين اقتصادى له اذا ما قورن بالملكيات الفردية الأخرى ٠

هذا بالنسبة للفلاحين المنتفعين بقانون الاصلاح الزراعى ٠ أما بالنسبة للفلاحين بوجه عام ، فان قوانين الاصلاح الزراعى خفضت الايجارات بالنسبة للفلاحين الذين يستأجرون الأرض التى يفلحونها ومن ثم فقد أدى ذلك بالتالى الى زيادة دخولهم بنسبة ٥٠٪ تقريبا ٠

كذلك فان هذه القوانين قد رفعت من أجور العمال الزراعيين بحد أدنى قدره ثمانية عشر قرشا فى اليوم للرجل وعشرة قروش للمرأة ٠

كما أن حكومة الثورة قد أولت الانتاج الزراعى بوجه عام عناية فائقة ، ومن ثم فان كل ما أصدرته من قوانين فى هذا الصدد قد أثر تأثيرا مباشرا على الانتاج والاستثمار ٠ فقد أثرت هذه القوانين على أصحاب الدخول الكبيرة سابقا وأصحاب الاقطاعيات وشجعتهم على أن يستثمروا أموالهم فى نواح اقتصادية أخرى ، ومن ثم فان هذه القوانين قد أدت بصورة غير مباشرة الى انتقال جانب كبير من رءوس الأموال الى مجالات الصناعة والتجارة والبناء ؛ ذلك أن قيمة الارض ذاتها قد انخفضت لأن الطلب على شرائها

أصبح ضعيفا . كذلك فان ادخال الوسائل الحديثة فى الزراعـــة قد رفع الانتاج ، وبالتالى أثر تأثيرا طيبا على انتصارات البلد بوجه عام . كما أن رفع دخول الفلاحين قد أدى بالتالى الى تحسين أحوالهم المعيشية ومن ثم ساهم فى ايجاد حلول اجتماعية لمشاكل الفلاحين. فان كثيرا منهم بنوا لأنفسهم منازل صحية نظيفة وطوروا أساليب حياتهم واهتموا بتعليم أبناءهم وبناتهم . وهـــكذا فان المجتمع الزراعى قد بدأ يتطور بشكل ملموس وجوهرى .

ويكفى أن نقوم بزيارة لمديرية التحرير غرب الدلتا وجنوب الاسكندرية حيث بدأ العمل فيها بعد بدء الثورة بثمانية عشر شهرا فى ديسمبر سنة ١٩٥٣ والتى تبلغ مساحتها حوالى مليون وثلاثمائة ألف فدان يجرى استصلاحها فى صبر ودأب ، يكفى أن ترى القرى الحديثة المبنية هناك والمجتمع الزراعى الجديد الذى تحقق فى فترة وجيزة لكى تحكم على الأثر الناجح الذى خلفته قوانين الاصلاح الزراعى فى مصر . ان الروح الجديدة لتبدو حتى فى أســماء قرى هـــذه المديرية .. نصر .. عمر شاهين .. أم صابر .. عمر مكرم .. أحمد عرابى . حيث تضم كل قرية مائتين وثلاثين منزلا يزرع أبناؤها ١٥٠٠ فدان من مساحة ١٢٫٠٠٠ فدان يجرى استصلاحها « حتى سنة ١٩٥٦ » وهم فلاحون من المعدمين اختيروا من الصعيد ،ومن المنوفية والدقهلية حيث يتقاضى الفلاح منهم حوالى اثنى عشر جنيها فى الشهر تمهيدا لتملكه الارض بعد استصلاحها تمامـــا وحيث يتمتع أبناؤهم بفرص طيبة فى التعليم والخدمات الاجتماعية والصحية وحيث يقوم مجتمع جديد فى أجمل صورة .

ان حكومة الثورة فى مصر .. وهى توجه عنايتها الى الفلاح .. وضعت فى اعتبارها فى المحل الاول الجوانب الانسانية وبدأب

تعد الأرض ورجالها ونساءها لاستقبال مزيد من المياه بعد انتهاء بناء السد العالى •

واذا كانت الحكومة الثورية فى القاهرة تتحمل نتيجة هذه الاعباء نفقات طائلة ، فان ذلك ولا شك كان السبيل الوحيد الذى ينبغى أن تسلكه الثورة لكى تطور الحياة نفسها فى هذا البلد العريق •

وأخيرا يتحدث الكاتبان الزوجان الفرنسيان ـ فى آخر جزء من كتابهما عن « ناصر » على حقيقته من هو هذا الرجل الذى غير وجه التاريخ فى هذه المنطقة ؟

من هو هذا الرجل الذى أصبح اسمه عنوانا لأكثر من كتاب ؟

من هو هذا الرجل الذى بعث أمة • واستطاع فى فترة وجيزة من عمر التاريخ أن يفعل ما لم يفعله قائد ثورة ؟

« ان أول ما يلفت نظرك فيه بنيانه القوى الفارع وابتسامته المتميزة التى ترتسم على وجهه الاسمر • انه فارع الطول صلب البنيان ، افريقى وعندما يقبل نحوك على درج منزله الصغير فى احدى ضواحى المدينة أو عندما يجتاز باب مكتبه فى الرئاسة فانك تلمح ثقته بنفسه بينما يمد يديه السمراوين القويتين • فى عينيه سمات آسيوية • يكاد يغمضهما تماما عندما يغرق فى الضحك ـ صوته معدنى رنان نحاسى •• صوت ملء كالصوت الذى يصلح تماما للمناورات الحربية فى الارض الواسعة المكشوفة •• لغته الانجليزية صحيحة بصورة ملفتة للنظر بل انها أحيانا تكون مصقولة » •

« ان مظاهر القوة تبدو عليه حتى عندما يسترخى، فيه حيوية الشباب ، ولقد ترتسم أحيانا على وجهه الجاد ملامح معينة عندما توجه اليه سؤالا خبيثا ·· ساعتها سوف ترتسم فى عينيه الدهشة المزدوجة بشىء من الضيق وسوف يزوى ما بين حاجبيه ثم يجيبك فى صراحة تذهلك ثم يعود الى ابتسامته المعهودة التى تخفى وراءها كثيرا من الحذر وكثيرا من الذكاء » ·

« وهو لطيف للغاية فى المقابلات الشخصية ، غاية فى الادب وهو يبدى اهتمامه الفائق بالسؤال الذى توجهه اليه ·· يبدو دائما مستعدا لأن يعرف كل شىء ·· ويتعلم كل شىء ·· بصرف النظر عن الشخص ذاته · ولقد قال نهرو عنه مرة :

« ·· ان أكثر ما أحبه فى هذا الشاب ، أنه دائما مستعد لأن يتعلم » ·

« وعبد الناصر · قائد فى غاية مذهلة من الذكاء · بديهته حاضرة وقوية ·· قاد مصر منذ ثورة ٢٣ يوليو وناور أعتى ساسة مصر القدامى فغلبهم جميعا » ·

هكذا يصف الكاتبان الفرنسيان عبد الناصر ·· فى بداية الفصل الذى يتحدثان فيه عنه ·· معتز بنفسه ·· طيب ·· ذكى ·· على درجة مذهلة من الصراحة ·

ثم يزيدان على ذلك فى صفاته الشخصية أنه : « هادىء .. قادر على ضبط أعصابه ، فحتى فى حالات غضبه الشديد يكاد الغضب لا يبدو على وجهه اللهم الا فى عينيه المزويتين وفكيه المنطبقين ·· دون أدنى ثورة وعندما يتحدث مثلا عن اسرائيل أو عن المشاكل التى تواجه شمال أفريقيا ·· لا تكاد تحس أدنى قلق

أو اضطراب ودون أن تتحرك عضلة واحدة في وجهه وهو يجذب أنفاس سيجارته » .

« وتستطيع أن ترى في مكتبته الخاصة كتبا في السياسة والتاريخ والاستراتيجية وكتبا في التراجم ، وهو يعطى نفسه من وقته ساعة كل يوم لقراءة الصحف الانجليزية والفرنسية والسورية واللبنانية . وكل أنواع الصحف التى تصل اليه من كل الأقطار التى تهمه . وعندما يناقشك فهو قادر ولا شك على اقناعك » .

« تستطيع أن تعرف هدف هذا الرجل غير العادى عندما تقرأ خواطره التى تعرف بفلسفة الثورة » .

« وتنقسم هذه الخواطر الى ثلاثة أقسام » :

« في القسم الأول : تجيء اعترافات شاب وطنى ثائر على الدكتاتورية والاستعمار الأجنبى .. يجمع للقارىء بالتدرج والوسائل التى يمكن أن تتحرر بها بلاده .. والحق أن هذا الجزء بالغ التأثير في النفس . مصوغ في أسلوب مصرى رومانسى تبدو فيه صفة الوطنى الثائر الذى يخجل من الأساليب الارهابية » .

« أما الجزء الثانى : من هذه الفلسفة الثورية ، فهو الذى تبدو فيه مرارته من أساليب محترفى السياسة وعدم ايمانه بجدواهم » .

« بينما الجزء الثالث : يصور آمال هذا القائد وأخلاقه ـ تهزك فيه صور الجماهير المجتمعة في الحج .. تتطلع الى الوحدة .. ملىء بالاحصائيات التى تثبت أن الارض العربية تضم الجانب الأكبر من بترول العالم .. ومن ثم فسوف تقرأ فيه .. ان المنطقة العربية تنتظر البطل الذى يقودها نحو تحقيق أهدافها في الحرية والوحدة وان الأمة العربية واحدة من المحيط الى الخليج » .

« ولقد كانت تلك الصيحات ـ التى وردت فى الجزء الثالث من « فلسفة الثورة » ـ أشبه بشيء بالمطارق يوقظ بها القائد الشعب العربى • ويدفعه الى العمل الثورى الجـــاد • الأمر الذى يوضـــح أن عبد الناصر « واقعى » كذلك وليس رومانسيا فحسب » •

« والآن تعالوا بنا نتحدث قليلا مع هذا القائد الشاب وهـو يجلس على مكتبه فى سنة ١٩٥٤ وينحنى الى الأمام متكأ على مرفقيه .. ورأسه يميل قليلا الى أحد كتفيه . عندما نسأل .. وهو يجيب بصراحته المعهودة •

ـ بالنسبة للاتفاقية الانجليزية المصرية « اتفاقية الجلاء » لماذا لم تنتظر مصر حتى تنتهى معاهدة ٣٦ فى موعدها المحدد سنة ١٩٥٦ ؟

وضحك عبد الناصر ضحكة عريضة •• ثم قال :

« لأننا نخشى الا تتقيد انجلترا بذلك كعادتهـــا •• وربمـــا استطاعت انجلترا أن تحصل على اذن باستمرار بقائها هذا من أية هيئة دولية من تلك الهيئات التى لا نثق بها نحن الدول الصغيرة . فهى هيئات لا تمثل الا مصالح الدول الكبرى ولا تعمل الا من أجل هذه المصالح » .

••• وكان ذلك فى سنة ١٩٥٤ قبل أن تنضم الى الأمم المتحدة كثير من الدول الآسيوية والأفريقية التى قلبت ميزان القـــوة فى الأمم المتحدة . وكان جمال عبد الناصر ولا شك لا يزال يعيش مأساة فلسطين التى اقرت الأمم المتحدة فيها وجود اسرائيل » .

ـ هل تعتقد أن خطط توحيد الأمة العربية يمكن أن توضع موضع التنفيذ فى هذا الوقت (سنة ١٩٥٤) ؟ .

ـ كلا بالطبع على الأقل لاعتبارات التنافس ، علاوة على أن بعض هذه الدول لا تزال غير متحررة تماما من كل أثر للنفوذ الأجنبى • ولكن مثل هذه الوحدة يمكن أن تبدو الآن (سنة ١٩٥٤ على مستوى التعاون فى مجالات الاقتصاد والدفاع وغيرها •

« ومن مثل هذه الاجابة •• يستطيع القارىء أن يدرك الى أى مدى كان عبد الناصر واقعيا وأمينا مع نفسه ومع المنطق وكان هذا فى سنة ١٩٥٤ على سؤال يتعلق بالوحدة . ولقد كان عبد الناصر فى سنة ١٩٥٨ لا يزال يعارض فى الوحدة الفورية ويطلب خمس سنوات على الأقل لتحقيقها • ان عبد الناصر لم يكن أبدا ذلك القائد الخيالى الذى يعيش الأحلام أكثر مما يعيش الواقع ويحس به » •

ـ هل فى نيتكم أن تسمحوا الآن بعودة النظام البرلمانى ؟

ـ « كلا ، فانه ليس من الحكمة أن نفعل ذلك • ان عاما ونصف عام لم تكن كافية أبدا لانهاء الفساد • ان الشعب المصرى لم يسترد أنفاسه بعد .. ولو أننا سمحنا بانتخابات كتلك التى كانت فى الماضى لاستطاع الاقطاعيون والرأسماليون أنفسهم أن يتسللوا الى الحكم وكأننا بذلك لم نفعل شيئا • وتستطيع أن ترى بنفسك هذه الحقيقة حتى فى (هيئة التحرير) التى تسلل اليها الكثيرون منهم أملا فى الحصول على المغانم وأملا في أن نغفر لهم أخطارهم الماضية ونحن لا يمكننا أبدا أن نسمح للرسمالية المستغلة أن تستعيد قوتها مرة أخرى . فلو أننا سمحنا بذلك فكأننا لم نقم بثورة .. وكأن الثورة لم تكن .. » •

••• ومرة أخرى يستطيع القارىء أن يلمس الى أى حد كان عبد الناصر حريصا على ألا تنتكس الثورة ، والى أى حد كان حريصا على أن يتسامح مع (الماضى) على أمل أن يغريه بالتوبة

والدخول الى حظيرة الشعب .. الى أى حد أيضا كان جمـال عبد الناصر حريصا على أن يتيح الفرص أمام الجميع فى العمل الوطنى كما ان هذه الاجابة الصريحة التى لا مداورة فيها ولا نفاق تبين طبيعة الثورة التجريبية التى جعلها عبد الناصر مرشدا له دون أن يتقيد بأيديولوجية جامدة تمد بين انطلاقة ثورية سـليمة تتحسس مواضع أقدامها من أجل مصلحة الجماهير وهنا نتذكر تلك الفقرة من خطاب السـيد حسـين الشافعى نائب رئيس الجمهورية التى أوضح فيها مراحل العمل الوطنى السياسى فى أن هيئة التحرير كانت وسـيلة لتجميع كل القـوى فى اطار عمل سياسى موحد مع فرصة اخرى لأعداء الشعب .. بعد أن ثبت الاتحاد الاشتراكى العربى آخر مرحلة من مراحل هـذا العمل السياسى أبعدت أعداء الشعب .. ثم كان بالتجربة أنه لا حرية لأعداء الشعب وأن الحرية كل الحرية للشعب وحده .

وهذه الاجابة التى أجاب بها عبد الناصر على سؤال الكاتبين الفرنسيين تعتبر فى حد ذاتها رائعة حقا .. فكأنما كان عبد الناصر فى الحقيقة ينظر فى سنة ١٩٥٤ بعين المستقبل ولا يتحدث عن المتسللين الى صفوف التنظيمات الشـعبية للانقضاض مرة أخرى على مصالح الشعب ومقدراته .

ويسأل الكاتبان :

ـ ما هى الكتب التى قرأتها والتى ساعدت على تكوينك كسياسى قائد ؟

ـ سياسى ؟ أنا لسـت رجل سـياسة . اننى درسـت الأستراتيجية حقا .. وأنا أعتبر أن الأستراتيجية جزء هام من (السياسة) ان مصر لم تكن لها أبدا استراتيجية .. ولكننا نحاول أن نكون لها منذ الآن أستراتيجيتها .. ولكن اذا كنت تريد أن

تعرف أى الكتاب افادتنى كتـاباتهم من النـاحية الثورية ؟ فاننى أقول لك .. توفيق الحكيم ، ومنذ شهور مضت حاول وزير التعليم أن يفصـــل توفيق الحكيم من منصــــبه كمدير لدار الكتب .. فرفضت » . (ثم ضحك عاليا وقال) « انه لمن العجيب حقـا أن نطرد رجلا تقدم أعماله في سالزبورج وباريس وتحسدنا أوربا عليه » .

ومرة أخرى نلمح فى هذه الاجابة كيف أن عبد الناصر رفض منذ البداية ان يكون واحدا من الساسة المحترفين الذين يعملون بالسياسة .. ونرى فيها كذلك (القائد) الذى يقود أمة نحو مصيرها بأسلوب قادة المعارك الذين يعرفون أعداءهم .. ويعرفون مواقع أقدامهم .. وأخيرا فنحن نرى فيها تقديره لأقدار الرجال الذين قدموا للجماهير نبضات من الأمل فى أوقات عز فيها حتى الأمل .

« ان المرء حين يقابل عبد الناصر ويجلس معه يحس بجـــو الوضوح والصراحة كذلك يحس بجو الألفة والصـداقة وكرم الضيافة . ولقد كانت مقابلتنا فى نفس الأسبوع تقريبا الذى صرح فيه (ادلاى ستيفنسن) بأن عبد الناصر « هو أقوى شـخصية فى جيله وأن الدول الصغيرة وحدها المحظوظة بأن يكون فيها مثل هذا القائد الممتاز » .

« ولقد قابلنا عبد الناصر مرة أخرى فى عام ١٩٥٥ ورأينا على وجهه طبيعة الأعباء والمشاكل التى يحملها على كتفيه وكان ذلك فى وقت تكررت فيه الاعتداءات الاسرائيلية على منطقة غزة .. وفى وقت بدأت فيه شحنات الأسـلحة التشـــيكية تصل الى مصر .. ويومها قال لنا :

ـ « ان العرب ليسوا هم الذين أشعلوا النار في فلسطين ٠٠ ولكن البريطانيين هم الذين فعلوا ذلك . هل حدث أنهم أنذروا العرب بموعد خروجهم لكى يمهدوا لاقامة فلسطين العربية ؟ انهم لم يفعلوا ولكن الذى حدث هو أنهم فيمـــا بين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٧ شجعوا على أن يقيموا دولة صهيونية فيهــا ولقد كانوا يهدفون من وراء انسحابهم السريع فى ١٤ مايو ســـنة ١٩٤٧ الى أن يتركوا الأمر كله للصهاينة الذين يســتعدون لذلك اليــوم ويتسلمون ويقومون باستعدادات عسكرية وجها لوجه أمام الفلاحين العرب العزل من السلاح . ومن ثم فان ذلك العمل كان يهدف فى الحقيقة الى منح فلسطين للصهاينة وكان لا بد اذن للعرب أن يواجهوا الموقف » .

« وانه لواضح الآن أن الاسرائيليين يحبذون فكرة الأمر الواقع الذى يحميه التصريح الثلاثى لسنة ١٩٥٠ »

« ونحن لا يمكننا أن نقبل حلا لمشكلة فلسطين قبل ان نسوى أولا مسألة الحدود ومسألة اللاجئين الفلســطينيين ٠ ان طرد مليون عربى من بلادهم واحلال غرباء محلهم يعتبر أول حدث من نوعه في التاريخ . ان جنكيزخان وكذلك هتلر لم يجرؤا على أن يفعلا مثل ذلك . ان من الواجب أن تعود حقوق اللاجئين الفلسطينيين اليهم بالعودة الى وطنهم وبتعويضهم .. ولعلك تذكر قول بن جوريون وموشى شاريت فى الفترة الأخيرة بأن اسرائيل ينبغى أن تستعد لاستقبال مليون مهاجر يهودى آخر ٠٠ اننا نريد السلام فى المنطقة ولكن ليس على حساب حياتنا .. على حساب الدول الصغيرة وحدها .. لماذا تتحمل الدول الصغيرة دائمـا تبعات السلام ؟ .. لماذا تتحمل وحدها المسئولية ؟ لماذا تكون هى دائما كبش الفداء » .

ـ يقول البعض ان علاقاتكم بالدول الشرقيـــة يحمل بذورا يسارية ؟

ـ بذور يسارية ؟ هل تعرف أنت شخصيا أية عناصر يسارية لها تأثير علينا ؟ ان هذه نظرة خاطئة .. ان ما تصورونه باليسارية ما هو الا وطنية .. ليس ذنبنا أن بلادنا كانت ولا تزال تشكو دائما من نفس القوى الغربية .. حركتنا كانت منذ ـ بدايتها ـ حركة وطنية أصلية » .

ـ ولكنك تحدثت أحيانا عن الاشتراكية ؟

ـ « ولكن الاشتراكية لا تعنى أننا نقرر لبلادنا غير ما يمكن أن نواجه به مشاكلنا .. واحتياجاتنا » .

***

هذا هو عبد الناصر .. هو هو .. فى سنة ١٩٥٤ ، وفى سنة ١٩٥٥ ، وفى سنة ١٩٥٦ ، وفى سنة ١٩٦٣ وحتى آخر يوم فىحياته الخالدة . عبد الناصر الذى أثار القوى الاستعمارية كما لم يفعل زعيم من قبل .

هذا هو القائد .. وهذه هى ثورته .. وتلك انتصاراته .

الرجل الذى غير وجه التاريخ فى المنطقة .

الرجل الذى أصبح اسمه عنوانا لأكثر من كتاب .

ترى ماذا يمكن أن يقول عنه الكاتبان الزوجان الفرنسيان « جان وسيمون لاكوتور » الآن ؟

ماذا يمكن أن يقولا عنه .. سوى أنه اليوم .. وأنه الغد .. وأنه المستقبل لكل الأجيال القادمة ..

فهرس

الموضوع | الصفحة

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١٣/١٩٧١



الثمن ٩ قرشًا

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر